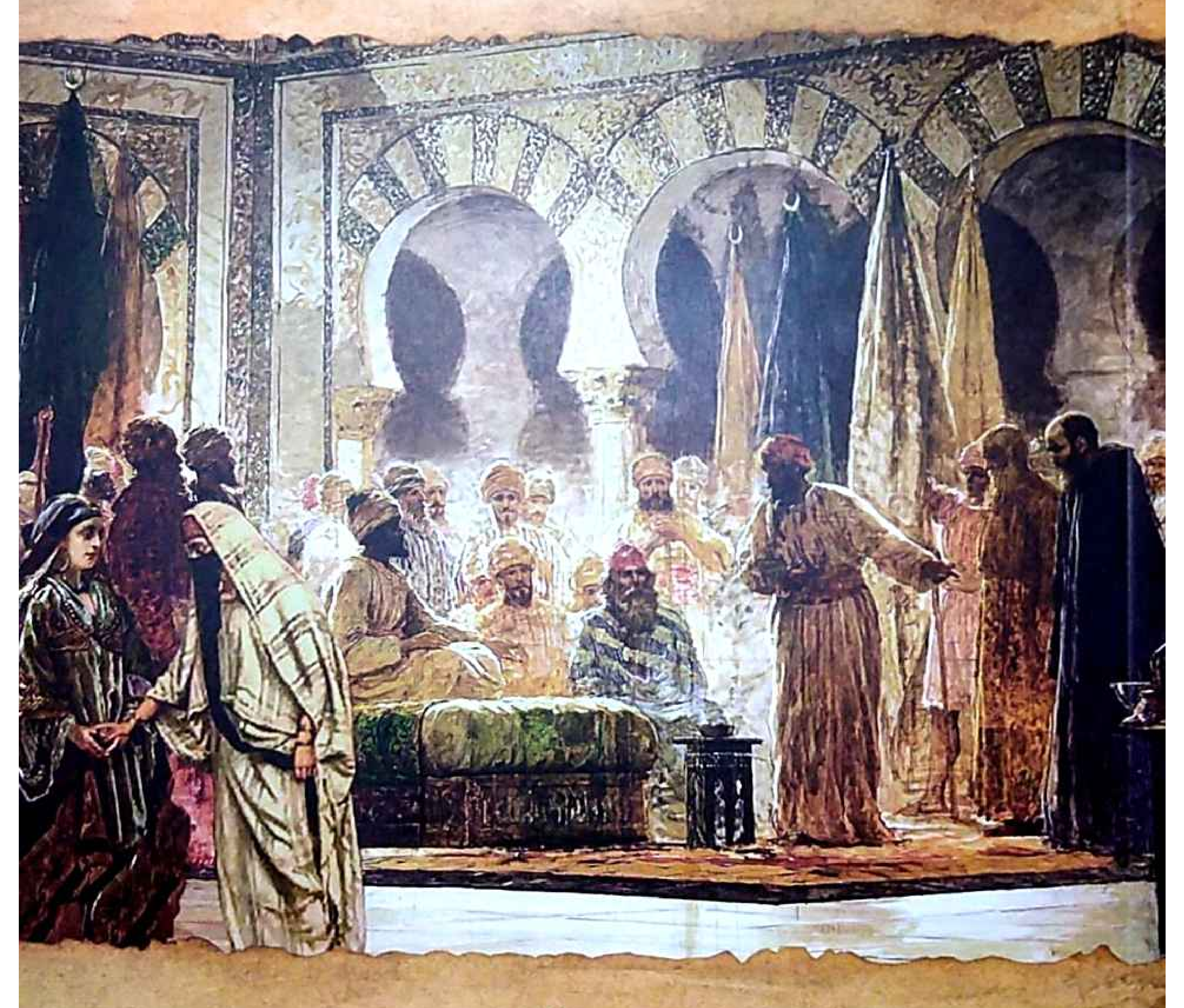
الدكتور محمد رجب البيومي

في قصور الأمويين

مُشاهدة تاريخية تصوِّر العصر الأموي بأحداثه وروَائعه



دار وحي القلم

في قصور الأمويِّين

مُشاهدة تاريخية تصوِّر العصر الأموي بأحداثه ورَوائعه

في قصور الأمويّين

مُشاهدة تاريخية تصوِّر العصر الأموي بأحداثه ورَوائعه

د. محمدرجب البيومي

الطبعة الأولى: 1437 هـ ـ 2016م

قياس القطع: 5, 14 × 5, 21 سم

عدد الصفحات: 240

الرقم المعياري الدولي: 8-64-501-9933-978

دار وحي القلم

أسَّسَها:
سليم محمد دولة
سنة 2002م

الكتب التي تصدر عن الدار تعبّر عن آراء واجتهادات أصحابها.

هدفنا...

تعميم القراءة المفيدة وتدعيم الكتابة.

وحي القلم تستقبل تآليف الكتّاب والمفكرين المبدعين وتشجع إمكانات التفكير وفرص النشر.

دمشق ـ هاتف: **2218526 11 963+**
بيروت ـ تلفاكس: **857444 1 961+**
جـدة ـ تلفاكس: **6608904 12 966+**
جـوال: **0218143 50 966+**
جـوال: **3637580 50 966+**

ص.ب: 4523 دمشق ـ سوريا
البريد الإلكتروني:
wahe_alkalam@yahoo.com
wahe_alkalam@hotmail.com

الدكتور محمد رجب البيومي

في قصور الأمويِّين

مُشاهدة تاريخية تصوِّر العصر الأموي بأحداثه ورَوائعه





دار وحي القلم

تستقبل تأليف الكتّاب والمفكرين المبدعين وتشجع إمكانات التفكير وفرص النشر.

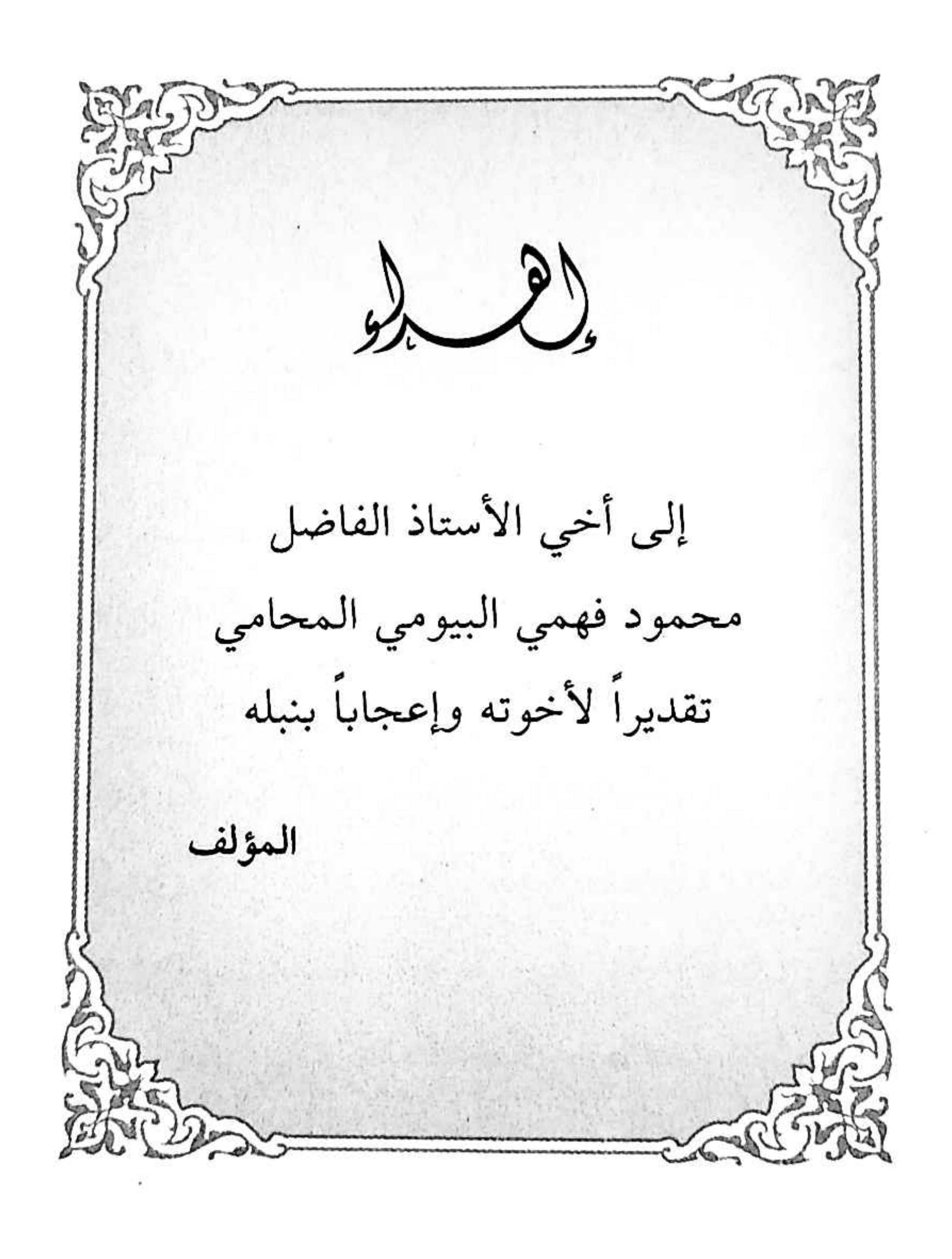
تجمع بين الأصالة والحداثة، وتستوحي إصداراتها من وحي الواقع، من وحي التجربة والممارسة، ومن رصد ما يُدبر لهذه الأمة ويُراد بها.

يعنيها جديد الإبداع الذهني الذي يُشِعُّ صورة الإسلام النقية في واقع يغصُّ بالأزمات والنكبات التي تستهدف الأمة في دينها وتراثها وأخلاقها.

تتقدم - بمعونة الله تعالى - نحو عالم كتابي من نوع آخر - وضمن خطة تعميم القراءة وتدعيم الكتابة والأخذ بيد القراء الأكارم - وقد أخذت الدار على نفسها استقبال الأسماء التي تحمل العناوين المضيئة الموضحة ضمن خطتها.

تدرك أننا جميعاً في دار الممر، لذا عليها أن تنير لنا السبيل إلى دار المقر بأمن وأمان ويسر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

المدير العام



إهداء

إلى أخي الأستاذ الفاضل

محمود فهمي البيومي المحامي

تقديراً لأخوته وإعجاباً بنبله

المؤلف



مقدّمة

العصر الأموي ـ كسائر عصور الحياة ـ حافل بأحداثه ومفاجآته، ومنها احتفل الكاتبون بتسجيل وقائعه وتدوين غرائبه، فلا يزال لدى المؤرخ الأدبي مجال واسع للتصوير والتحليل، وسأختار في هذه الصفحات من غرائب الأحداث ما يؤدي دوره القوي في تفسير الأعمال وتحليل الشخصيات، وتفهم الأسباب والنتائج، مرتضياً وجهة الحوار الهادئ في رسم الملامح، ووصف المشاهد، وتأويل البواعث، ليرى القارئ صورة هذا الزمن في ضوءٍ كاشفٍ صريحٍ، على أني تريثتُ كثيراً في مطالعتي الهادفة، ثم في اختيار ما يجمل أن أقدّمه من الزاد التاريخي، فآثرت بالحديث كل ذي دلالة بارزة في كشف التيارات المتصارعة، بحيث أضع الرسم الأصيل لجهات مختلفة من زوايا هامة توجب الالتفات، ناسجاً من شتى الخيوط المتزاحمة ثوباً منسقاً لا يفقد في

مجموعه لوناً أصيلاً يقوي لحمته، ولا أنكر ما بين هذه الألوان من اختلافٍ واضحٍ إذ أنها بنيانها المتعدد ترسم صوراً متقابلة للدهاء والطيش والثورة والخنوع، والخصب والجدب والصراحة والرياء والظلم والمسدل والترف والشظف، ولكنها في مجموعها تبرز الصورة الحقيقية لمصر حافل بالغرائب والمفارقات إذ تتحدث عن السياسة والأدب والفن مصوّرة خطوات الحضارة العربية في بدء طريقها الطويل وما تعاقب على أبطال هذا العهد من شقاء وسعادة، وكيف هيأت الأقدار مَن وطّد لهم دعائم السطوة والجاه والفتح بدءاً ثم سار الزمن على عادته فجعل من وسائل البذخ والترف وأسباب المنافسة والتطلع ما عصف بهم في النهاية وتلك سُنَّة الحياة.

وقد آثرتُ أن أنحو منحى يقرب من المنهج الروائي في تسلسل الحوار وتتابع الحوادث وتحليل الشخصيات، ولم أشأ أن أجعل من كل فصل أقصوصة أدبية تلتزم السمات الفنية في تلوين المسرح وتوشية الظلال والاسترسال في التحليل والاستشفاف كيلا يخرج بنا الخيال الأدبي عن نطاق الواقع التاريخي، فيظن قارئ ما أني أجيز لنفسي أن أختلق من الحوادث والأعمال ما تجيزه القصّة لكاتبها الفنان، وإذا كان من الكتّاب مَن فعل ذلك في براعةٍ وابتداعٍ فإنني في

هذا المجال أقصر الحديث على الواقع وحده على أن يُساق في سمرٍ سهلٍ يدفع القارئ إلى متابعته وحسبي أن أقدّم بعض المواقف التاريخية في إطارٍ جديد.

وإذا كان كثير من حديث هذه المشاهد ما يدور في قصور الحاكمين، فما أدرتُ بذلك أن أتحدث عنهم وحدهم، ولكني كشفتُ عن مقومات العصر وعناصر ثباته، وأدوات هدمه، في دائرة واسعة كان أولو الأمر مركزها الذي يتسع حوله المحيط، كما لم أجعل دمشق حاضرة الخلافة الأموية وحدها مسرح الأحداث، بل شاركتها مصر والكوفة والبصرة والمدينة ومكة والأندلس بحيث تتضح الدولة العربية في مطارحها القريبة والبعيدة في نطاق يتعرفه القارئ دون إجهادٍ، وعسى أن يجد من وراء ذلك ما حرصت عليه من خصب المادة، وسهولة الاستيعاب وحسن التوجيه.

د. محمد رجب البيومي



أخٌ جديدٌ

ارتحل المغيرة بن أبي شعبة والي الكوفة من العراق إلى دمشق ملبياً نداء أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، إذ أرسل يدعوه إلى قصر الخلافة على عجل... وكان المغيرة حازماً أديباً يفكر في كل شيء، ويستشف ما عسى أن يأتي به الغيب من طوارئ وأحداث، فأخذ يقول في نفسه: ولماذا بعث إليَّ معاوية دون غيري من الولاة؟ أتكون وشاية سيئة طرقت سمعه فأورثته شكوكاً مبهمة، وأَحبَّ أن يكشفها بالمشافهة والسؤال، ثم ماذا صنعتُ بالكوفة مما لا يرضى عنه أمير المؤمنين، أيكون بعض عيونه قد نقل إليه ما أُبْدِي من التساهل مع شيعة علي وأنصار الإمام؟ لقد حاولت أن أصطنع الشدة مع هؤلاء فرأيتها ريحاً تزيد الاندلاع وتؤجج اللهيب، لأن البلد الذي امتحنتُ بولايته كان ولا يزال وكر الهاشميين! ولا يمكن أن يذهب حب آل عليّ وبنيه من

قلوب أهليه ما بين صباح مساءٍ! ولئن اشتدّ عليهم بعضُ الولاة ليثيرونَ إعصاراً مدمراً يأتي عليه فلا تطمئن به حياة، إن التساهل واسترضاء القلوب أدعى إلى جمع الشمل وتسكين الثوائر، وكم سخط أمامي الساخطون، ونقم دوني الناقمون، فمحوتُ الغضب المتوقد ببسمة باهتة، أو كلمة صافحة، وأقسم لأن كنت قابلت السيئة بالسيئة لأنكأنّ جراحاً تندمل على حديد، فيفجؤني ما يسوء معاوية من التمرد والعصيان! إن معي رأيي الناصح وحجتي البيضاء، ولئن خالفني أمير المؤمنين لأبسطنّ له رأيي عن صراحة وتصميم، وهو بعدُ داهيةٌ محنك يميل إلى الإغضاء كما أميل، فهو أقرب إليّ مذهباً من سواه، ولعله يشكرني على خطتي الناجحة فأرجع عنه مثلوج الصدر منقطع الوسواس.

كل هذه الهواجس كانت تدور في نفس المغيرة حين تقدّم إلى صاحب حرس الخليفة يلتمس الإذن عليه في المثول!! وما كادت تقع عليه عينُ أمير المؤمنين حتى نهض مرحّباً، وحيّاه محتفلاً، وأجلسه إلى جواره في هشاشة وإقبال، وقد بدأ المغيرة فأطرى الخليفة بما يوحي به الموقفُ من تزلف مصطنع، وتمدّح بالكياسة والرئاسة والدهاء. ثم هنأه باجتماع كلمة الناس على خلافته، إذ بايعه الحسن بن علي راضياً، ومن ذا بَعد الحسن ممن يأبه له

أمير المؤمنين؟ فأطرق الخليفة كالمفكر، ثم نظر إلى صاحبه يقول: إنك يا ابن شعبة في ذكائك ودهائك لتعلمُ أن الحسن ليس كل شيءٍ في الدولة، فهناك من شيعة عليّ من تغلي نفوسهم بالوجدة والحسرة، ولئن بايعوا اليوم مكرهين، فإنهم يتطلعون إلى يومٍ قريبٍ تسقط فيه رايتي ويرتفع لواء بني هاشم كما يشتهونَ، ولقد دعوتك من الكوفة لأستشيرك في هذا الأمر المحيّر، فأنت في موطن العلويين ترى وتسمع أضعاف ما ينقله الناقلون إليّ من اللجاج والخصام، ووالله لقد فكرتُ في الموقف تفكير المتربص المتحفز، وأخذتُ أستعرض أسماء الناقمين من شيعة عليّ، والمناوئين من طغام الخوارج، فما رأيت أقوى شكيمة وأوسع حيلة في أولئك وهؤلاء من زياد بن أبيه، فقد اعتصم مني بفارس وجمع من الأموال والرجال ما يفوق العد.. ولئن ظلّ على شقافه للدولة ليكونن شوكة دامية تؤرق راحتي فما ألتذ بحياة، وإني لأعلم أن زياداً صديقك وصاحب سرك، وأنت وحدك الجدير بتوطئة الأمر بيني وبينه، ولك أن تضع من الشروط ما تختار، لتمحو حُب آل عليّ من قلبه، وتجذبه إليّ بأمراسٍ لا تنقطع، وأعلاق لا تبيد.

فقال المغيرة مبتسماً: علم الله يا أمير المؤمنين لقد فكرت خالياً في أمر زياد، فعرفت أنه قوة جبارة تضر وتنفع،

وتشقى وتسعد، ولئن أمتع الله أمير المؤمنين بإذعانه وولائه ليجدن أسداً هصوراً وفارساً مغواراً، يرمي به البركان الهائل فينقم له الظفر والاستقرار... فابتسم معاوية ابتسامة معبّرة وقال في تطلع: اصغ إليّ يا مغيرة، لقد فكرتُ أنا الآخر في أمر البصرة وما يموج بها من الشغب والثوران، فلم أجد من يقوم لها غير زياد، فهو أدرى الناس جميعاً بمضايقها الملتوية، وأمراضها المعتلة، وقد كان صاحب الأمر بها من قِبَلِ عليّ فجمع أهلها على طاعته، وغرس في قلوبهم حب بني هاشم، وقام بالإدارة والجباية والخراج كأحسن ما يقوم به مخلص غيور.. ولئن سهل الله كل شاق عسير، فجذب زياداً إليّ لأنامنّ في قصر الخلافة، وقد آويت منه إلى ركن شديد، وحصن ذي معاقل وأسوار.

فهزّ المغيرة رأسه موافقاً ورأى أن يبسط في أسباب القول بما يرضي أمير المؤمين فقال: إن مهارة زياد لم تظهر أيام عليّ فحسب، بل باركها عمر بن الخطاب، وزكّاها أحسن تزكية على رؤوس الأشهاد، فقد أرسله مساعداً لسعد بن أبي وقاص في حرب القادسية، فكفاه الحساب والكتابة والخراج، وقام بتسجيل كل صغيرة وكبيرة في الغنائم والسبي على أحسن وجه يتاح، ثم رأى سعد أن يبعثه رسولاً إلى عمر بالمدينة فيبشر بنصر الله، ويدفع بغنائم العرب، فتقدم إلى

الفاروق ثابت الجنان، جريء القول، وشـاهد عمر من ذكائه وثباته ما أكبره في عينيـه، فقال له: أرأيـتَ لو جمعتُ لك الناس فتُحَدثهم على منبر رسـول الله بمثـل ما حدثتني به، أتكون ثابتاً هكذا غير هياب!! فأطرقِ زياد في أدبٍ، ثم قال لعمر في ثقة: إنني أشدّ هيبة لك من الناس يا أمير المؤمنين، وقد حدثتُك دون رهبة كما ترى، فأولى أن يرسخ ثباتي أمام الناس، فجمع عمر له القـوم وتكلّم زياد بما أطرب وأدهش وأقنع، حتى قال عمرو بن العاص: لله دره من شاب أريب لو كان هذا الخطيب قرشياً لساق الناس بعصاه!!

فارتاح الخليفة لما سـمع، وقال في ابتسامٍ: لقد علمت ذلك من عمرو، وعلمت معه أن أبا موسى الأشعري قد ترك له أمر البصرة حين كان والياً عليها من قِبَلِ الفاروق، فشكاه الناس إلى عمر، وقالوا: ترك أبو موسـى الأمر لشابٍ حَدَث غير مجربٍ، فاسـتدعى عمر زياداً من البصـرة على عجلٍ، وناقشـه في أمر عمله، فرأى الحزم والكفاية والسـداد!! ثم كتب إلى أبي موسى يقول في اعتزازٍ: عليك بزياد فلا تقطع أمراً دون مشورته، فنعم النصير على الأعباء!!

ثم سـكت معاوية لحظة، كمن يتذكر أموراً بعيدة تواتيه بالسكون والاسـتجماع، وقال متابعاً: وإني لأعرف عن يقين

يا مغيرة أنه يكنُّ لك المحبة والـــوداد، وقد أنقذك من الحدّ حين لجلج في شـــهادته عنك أمام الفاروق، فإذا ذهبتَ إليه وأعطيته رضاي وأمانيّ فسيعتقد فيك الصدق والإخلاص.

فعضّ المغيرة على شفتيه ثم نظر إلى معاوية في تخابث وقال: أما وقَدْ مدحت زياداً يا أمير المؤمنين بكل ما ذكرت، فهـــل بلغك ما تناقله النـــاس عنه يوم خطـــب بالمدينة لابن الخطاب!!

فانتبه معاوية في اهتمام، وقال فـــي حزم: بلغني والله ما تعنيه، وكنت منتظراً أن تنقلَه إليّ حين حدثتك عن صاحبك دون تمهيد يطول.

فنظـــر المغيرة نظرة ماكـــرة، وقال: إن مثل هـــذا الحازم الداهية البليغ لا بدّ أن يكون قرشـــيّاً من أعرق البيوت، وقد ذكر الثقات أن أبا ســـفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد سمعه يخطب الناس على المنبر بعد القادسية فأسرّ لمن حوله أنّه أبوه، إذ كان غفر الله له، قد اتصل بسمية في الجاهلية فحملت زياداً.

فقال معاوية في حذرٍ: وما منع أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يعترف بابنه حينذاك؟

فردّ المغيرة في دهـــاءٍ: لعله خاف بأس عمر، فقد كان لا يقبل الخوض في الأعراض، فأطرق الخليفة كالمفكر ثم قال

بعد ترددٍ: هو ذاك يا مغيرة، ولئن تردّدَ والدي في استلحاق زياد، فوالله لأجهرنّ باستلحاقه مهما تخرّص الناس!! فاذهب إليه سريعاً في حصنه النازح، وأبلغه أني أخوه، وسأعلنُ نسبه في يوم مجموع له الناس.

قال المغيرة ـ وقد أخذ سمت الناصح الأريب ـ وهبْ أن بني أُمية وهم رحمُك وذوو قرابتك قد عارضوك ومانعوك، فماذا تقول يا أمير المؤمنين في أمرٍ يصعب عنه التراجع، وتتشاجر حوله الآراء.

فقال معاوية في تصميمٍ أكيدٍ: أنا الخليفة المطاع!! وإذا اقتنعت بشيءٍ فما ينقضه سواي.

ثم نهض واقفاً وفي وجهه بصرامة وجد، فعلم أن الحديث قد انتهى مع الخليفة فاستأذن في السفر إلى زياد، فأذن له وأوصاه... ثم توجه لتوه إلى خراسان، وفي نفسه مآرب وآمال.



لَمْ يشأ معاوية أن يستشير أحداً من أهل بيته فيما عزم عليه كيلا يتشعب الرأي أو يتزايد الخلاف، بل كتم أمره في نفسه، وأخذ يستدعي سراً من يجذبهم إلى رأيه من شهود

الاستلحاق ليؤدوا الشهادة أمام الناس دون تردد أو اضطراب، وقد أهمّـه هذا الأمر فكان يفكر فيه تفكيـر الجاد المصمم، فإذا هجس في نفسـه هاجس بالتراجـع والتريث قضى عليه فجأة، دون أن يسمح له بالاسترسـال واللجاج!! وكأنه كان يوازن بين استقرار ملكه واستلحاق صاحبه، فيجد أن الأسد المتربص بفـارس دعامة قويـة، وركيزة وطيـدة... ثم إنه بخراسـان مقيم على حب آل عليّ والوفاء لشيعته، ولعله إن امتد به الزمن أن يجمع الناس حول الحسـن أو الحسـين، فيشب ثورة هائلة تنقسـم لها الدولة ويتشعب بها الأمر، وقد يقوى شـأنه فيقف أمام معاوية وجهاً لوجه، وله من تشـيعه لأهـل البيت ما يجمـع حوله القلـوب النافرة فـي الكوفة والبصرة وسجسـتان وخراسان، فلماذا لا يسـارع باستلحاقه فيضم هذه القوة الوطيدة إلى عماده، وينزعها نزعاً من شيعة عليّ فلا تقـوى على نهوض أو تتحرك لقتـال... لا بدّ إذن مما ليس منه بد، مهما أثار اللجاج، وأدهش الناس.

وفي أصيـل يوم كادح شـاق قضاه معاوية فـي التأهب والاسـتعداد، توافد الناس أرتالاً إلى مقر الخلافة بدمشـق، وهم لا يدرون شـيئاً عن دعوة أمير المؤمنين، وما تتمخض عنه من أحـداث، فوجـدوا زياد بن أبيه يجلـس عن يمين معاويـة في مقعـدٍ واحدٍ!! وقد أعـدّت المجالـس صفوفاً

متلاحقة لتجمع وجهاء العرب من أشـراف القبائل والبطون، ثم جِيء بمنبر مرتفع فنصب أمام الحاضرين، وصفّق معاوية أولاً فتقدمـت أُختُه جويرية بنت أبي سـفيان، لتقف مبرقعة تتكلم ولا يرى وجهها الناس، فسـألها الخليفـة فجأة: ماذا تقولين في زياد؟ فقالت في ثباتٍ: هو أخي يا أمير المؤمنين، وقد حدثني والدي بذلك!!

فأُخِذَ القومُ لهـذه المفاجأة الباغتة، ونظـر بعضهم إلى بعض يتساءلون بمقلهم الحائرة دون أن يفوهوا بحرفٍ واحدٍ، ولكنّ معاوية يتطلع إلـى الحاضرين في تجهمٍ ينذر بالوعيد والتهديـد، فتنخفض الـرؤوس، وتنطبق العيون فما تشـي باستهزاء... ثم صفق الخليفة ثانية بيديه، فجاء المستورد بن قدامـة الباهلي، ووقف أمام القوم في عزم وتصميم، فسـأله الخليفة: مـا تقول في زياد؟ فقال في جـرأة صارمة: هو ابن أبي سفيان وقد حدّثتني والدته سمية بذاك!!

فتطلـع الخليفة إلى مـن حوله، وتجاهل ما شـاهد من الحيـرة والارتبـاك، ثم صفق ثالثـة، فحضـر زيد بن نفيل الأسدي، وسـأله معاوية كما سأل من سـبقه، فقال في دفعة واحدة: زياد أخوك وابن أبي سفيان، ونسبته إلى عبيد كاذبة لا تحتمل النقاش.

فهزَّ معاوية رأسه، ثم صفق رابعة، فحضر أبو مريم السلول وقال مندفعاً: أشهدُ يا أمير المؤمنين أن أبا سفيان حضر عندي في الجاهلية، وطلب مني بغياً، فقلت له: ليس عند غير سمية، فقال: ائتني بها على قذرها ووضرها فأتيته بها فخلا معها!!

فتجهم وجه زياد فجأة، وبدا عليه الغضب، وكان من قبل مرتاحاً لما يسمع ويرى، ثم قال: مهلاً يا أبا مريم إنما جئت شاهداً لا شاتماً!! ما لكَ والقذارة أرشدك الله!!

فنظر معاوية إلى أبي مريم كمن يستنكر عبارته، ثم تطلع إلى القوم فوجد الدهشة الحائرة تضطرب في الوجوه، فلم يعبأ بما شاهد، ثم صعد لتوه إلى المنبر فقال: «الحمد لله الذي أحـّق الحق وأزهق الباطل... ألا إن زياداً أخي بشهادة الشهود، وقد صححت الآن نسبته على مشهد منكم، فهو من الآن زياد بن أبي سفيان والله على ما أقول شهيد».

ثم نزل ودعا زياداً ليتكلم، فتقدّم في حيرة وصعد إلى المنبر فقال: «الحمد لله الذي أحقّ الحق وأزهق الباطل، ولئن كان ما شهد به الشهود حقّاً فالحمد لله، وإن يكن باطلاً فقد جعلت بيني وبينهم الله، وهو على ما أقول شهيد».

ونزل ليأخذ مكانه جوار الخليفة ويفيض معه في حديث طويل، حتى إذا طال الأمد أخذ الناس يتفرقون متعجبين، وقد بلغ الغضب بعبد الله بن عامر أمير البصرة ـ وكان في الحاضرين ـ حدّاً بعيداً، وهو من وجهاء بني أُمية وله دالة ومكانة، وفي تاريخه بطولة واستبسال، فصاح في الناس على غيظٍ: لقد هممت إن آتي بقسامة من قريش يحلفون بالله أن أبا سفيان لم يَرَ سمية أبد الحياة، وأخذ الناس يفيضون فيما سمعوه وهم أقرب ما يكونون إلى الاستخفاف والتهكم حتى أصبحت دمشق جميعها وأصقاع العرب من ورائها أصداء تتردد بما كان من أمر معاوية وزياد... وبات العرب منهما في تساؤل مربك، وتعجب غريب.



خلا معاوية إلى أخيه الجديد في قصر الخلافة، فأثنى ثناءً عطراً على سياسة زياد، ومواهبه، وقال في دهاءٍ خادعٍ ـ كمن يظهر إغضاءه عن ماضيه ـ إن إخلاصك لعلي وتفانيك في الولاء له كان دليلًا على أصالة معدنك ورصانة أصلك، وقد أحببت أن أنتفع بقرابتك فأظهرت ما خشي أبوك أن يعلنه، وضربت صفحاً عما يقوله الناس من هراء، ولست أرجو غير أن أحل لديك محل علي»!! فقال زياد في استعطاف:

لقد أخلصتُ العمل لعلي دون رحم ماسة أو واشجة قريبة، ولكنك أخي القريب الحبيب، وقد ارتبطتُ بك ارتباطاً باركهُ الله وشهد به الناس، وليكوننّ وفائي لك أبرُّ وأعظم... وإني - وأيم الله - لأعلم ما تحملتَ من المصاعب في إذعان من حولك من بني أُمية لأمري معك، ولم تكنْ فيما قمت به من الاستلحاق غيرَ جريء ندب يتحدى العقبات، ويذلّل الصعاب، ولأرينّك من سياستي في العرب ما تقرّبه عينيك، وتستقر عليه دولتك، وسأنهي القول في ذلك غير مسهبٍ، لأدع العلم وحده يقوم لديك ببرهان أكيد لا يقبل طعن طاعن، أو افتيات دخيل! فتبسم معاوية ابتسامة زاهية، وقال: هذا ما أتوقعه منك، وستلي من الآن أمر البصرة، وأنت أدرى الناس بثوراتها المتعاقبة، ودواهيها المتأصلة، فبيْن أهليها من شيعة علي من لا تطرف لهم عين، أو تستقر بهم جنوب، وهي مع ذلك ميدان فسيح للخوارج تتراكض في حلبته جيادهم وتسلّ حرابهم. مما أحالها أتوناً يشتعل، وسعيداً يلتهب، ثم هي مع هذا وذاك مراد اللصوص والمتبطلين ممن لا يفيئون إلى خلق أو يعتصمون بدين، وإذا كانت البصرة قد جمعت شذاذ الشيعة والخوارج والمارقين فليس بها أموي واحد يجمع حوله فئة من ذوي أحسابنا وأبناء ولائنا، وأرجو أن تكون أنت هذا السيد الذي يغرس شجرتنا الذكية أكرم

مغرس وأنماه... ولا أزيدك علماً بما تصنع فإن أبلغ برأيي بعض ما لديك. فهزّ زياد رأسه موافقاً مؤمناً... ثم قال في حزم: لئن كان أمير المؤمنين قد أحاط خبراً بما يضطرب في البصرة من أهواء وشيع فإني أشهد الله لأجعلن هذا البلد الثائر مثابة أمن، وقاعدة استقرار، ومن أعياه به داؤه فعند دواؤه، من ثقل عليه رأسه فسأريحه منه، ولن يجهر مغرض بكلمة سوء إلا قطعت لسانه! على أني لست محتجباً عن طالب حاجة ولو أتى طارقاً بليل، ولا حابساً رزقاً ولا عطاء عن إبانّه، ولآخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح بالسقيم، ووالله لو فُقد حَبْلٌ بيني وبين خراسان لعرفت آخذه وشددت عليه النكير.

قال معاوية متهللاً: بارك الله فيك يا أخي فسر على بركة الله، حيث يتألق سلطانك وتزدهر أمانيك... وسارت الركاب تخب بزياد إلى إمارته، وكان من هواجسه المتشاجرة في موج لا يهدأ؛ فهو يفكر كيف يلقى الناس في البصرة بنسبه الجديد؛ وإنهم ليعرفون عن أبيه عبيد كل صغيرة وكبيرة: ألم يبلغ عطاء زياد ألفين من الدراهم ذات يوم من الأيام فيشتري عبيد أباه بألف ويعتقه أمام البصريين، ويقول للملأ: هذا أبي وقد أحببت ألا يكون عليه سلطان فيتحدث الناس عن ذلك مسهبين! ثم ماذا يصنع إذا غضب عليه أخوه من سمية

وأذاع في الناس أن نسبه في أمية دخيل لصيق! يكابد الأمير حرباً من الأعداء وحدهم أم من الأولياء والأعداء؟ على أن الأدهى من ذلك أن البصريين يعلمون جميعاً أن هواه علوي، وله بشيعة بني هاشم صلة واشجة، ومحبة أكيدة، وهذا حجر بن عدي كبير الشيعة يقاسمه المحبة ويشاطره الوداد، أفيصبح ما بين يوم ولية خصماً لدوداً لقوم ساقاهم الحب وعاقرهم الولاء... وأين يخفي وجهه من العيون التي تتطلع إليه في دهشة بنظراتها الحادة فتحدثه بما لا يستطيع أن يؤاخذها عليه، وأن لها لصوتاً جهيراً تعرفه القلوب، وإن لم تنصت إليه الآذان... وماذا يصنع في الابتسامات الهازئة التي ترتسم على الشفاه حين ينظر إليه القوم مستنكرين ساخرين، تلك هي هواجس زياد تأخذ عليه السبيل فما تدعه يهنأ بنومٍ في رحلة أو يستمتع بأفقٍ في مسيراً على أنه في هذا الصخب المشتجر من الظنون يتذكر معاوية أخاه الجديد، فيقول في نفسه: أليس معاوية صاحب الأمر والسلطان وقد رضى بما أتوجس منه وأهاب، وإذا كان الخليفة في دمشق لم يعبأ بما يقوله الناس، وأنه ليقرأ في عيونهم ما أقرأ من سطور الريبة والاستنكار، وإنه ليلحظ في ابتساماتهم ما ألحظ من بوارق الشماتة والاستخفاف، وهو مع ذلك ثابت لا يتزحزح ولا يميد! أيكون معاوية أوسع مني أفقاً



وأحكم حيلة! ولم لا أكون مثله مترفعاً عن السفاسـف أبياً على الصغار؟ أجل، سـأكون مثـل الخليفة حازمـاً مترفعاً، وسـأعادي أصدقاء الأمس عن سيطرة واسـتعلاء، ولتشهدن منـي البصرة رجلاً غير الـذي كان! إن أبا سـفيان أبي وقد شـهد بذلك الشـاهدون عن صراحة ويقين، فلأَيَنْسـبْ إلى هذه الدوحة السامقة، ولأخلعْ عني ثياباً رثة طالما استحييت منها إذا خلوت، وإذا كان الإسـلام لا يفرق بين صغير كبير من الأُسـر، ورفيع ووضيع من الآباء، فإن العصبية الجاهلية التي انتشـرت اليوم بيـن القبائل قد نبذت تعاليم الإسـلام وأصبحت تجعل من الأنسـاب الرفيعة والآبـاء والغطاريف ملاذاً يحتمي به الفاخـرون، ويكترث له المتباهون! لقد كان الفخر بالإسلام والعمل الصالح وخشية الله بضاعة نافعة أيام علي بن أبي طالب، أما وقد ذهب إلى ربه وتبدل الناس غير الناس فلأترك ديـدنَ الذاهب الغارب، ولأَزْه بما يشـمخ به الشامخون، ولن يسـتطيع أحد أن يجاهرني بمخالفة، ومعي سـيفي وحولي جنودي وأعواني. فليطو ضلوعه من شاء أن يطويها على حقده وغيظه حتى يدرج في أكفانه... ولأصبح سيد العرب بالعراق، وعاهلَ أُمية بالبصرة وخراسان!

وما لبث أن دخل البصرة دخـول الفاتح المدجج، وبدأ فأعلن على المنبر نسبه الصريح إلى أبي سفيان، وندّد بأولياء

بني هاشم وأشـياعهم من الشـذاذ والعصاة، ثم ثنى خطبته فأتى بكلمة بتراء كلهـا وعيد وتهديد، وشـفع القول فعمد إلى صديقه حجر بن عدي فسـاقه مكبّلاً إلى دمشـق ليلقى مصرعه شهيداً محتسباً، مع رهط من صحابته الأبرياء! ورأى الناس أن الدنيا لا تبقى على حال، لقـد كانت تغير الطبائع والأخلاق، فأصبحت ـ واعجباً ـ تغير الآباء وتوشك أن تغير الأُمهات.

ويسمع معاوية في دمشـق أنباء البصرة، أفأتاه من سيرة أخيه ما أعجبه وأبهجه! فأخذ يراسله مادحاً مشجعاً، وشاء أن يعبّر عملياً عن ارتياحه الجمّ لسيرته في الحكم ومسلكه مع الأولياء والخصوم. فضم إليه اليمامة مع العراق! وجمع في قبضته ما فتح من الهند والبحرين وعُمان فأصبح زياد بن أبي سفيان الرجل الثاني في الدولة بعد أمير المؤمنين.

واسـتأذن عبد الله بن عامـر علـى الخليفة ذات مسـاء بدمشـق، فأذن له في غضب وامتعاض، وما كاد يصافح أمير المؤمنين ويأخذ مجلسـه إلى جواره حتى نظر إليه في ضيقٍ وقال محتداً:

ما هـذا يـا عبـد الله، أتخـوض في نسـب زيـاد مع الخائضين!!

فردّ عبد الله في ثبات شجاع: لقد أدخلتَ بيننا يا أمير المؤمنين من لا نعرف من الناس، فإذا كنت لا تحرص على أبي سفيان، فإني على أُمية جدّ حريص!

فقال معاوية في غضبٍ كظيم: لن يحرص أحد على سلطان أُمية كما يحرص زياد، ووالله لو وجدت في بني أبي، أميراً كزياد يهابه العراقيون ما ركبت هذا المركب الوعر، أفأنتم منتهون!

فتراجع ابن عامر قليلاً؛ ثم قال في ملقٍ متزلفاً: نحن منتهون إن شاء الله إلى ما رغب أمير المؤمنين ولكن، ما نصنع في ألسنة حداد تأخذنا بقوارصها الداميات!

فنظر الداهية متأملاً صاحبه، وقال في همسٍ هادئٍ: سأقطع الألسنة يا عبد الله بالتساهل والإغضاء... ثم سكت ملياً وصاح: الشدة تكثر الأقاويل يا قوم فيندلع الحريق.

فردّ عبد الله مقاطعاً: كلا يا أمير المؤمنين الحزم الحزم مع الناس.

فابتسم معاوية ابتسامة ماكرة، وقال في تحبب: ما أغباك أيها اللجوج المكثار! لقد جاء في قول يزيد بن مفرغ لعنه الله:

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... مغلغلة أحد من اليماني

أتغضب أن يقال أبوك عف ... وترضى أن يقال أبوك زاني

أفتدري ماذا صنعت به؟

فقال عبد الله: علم ذلك عند أمير المؤمنين.

فتنهّد معاوية كمن يزيحُ عن صدره ركاماً من الأشـجان، وقال في همسٍ: لقد توعدته فاسـتكان، ثم عفوت عنه، ولو كنت قطعت رقبته لأصبح شـهيداً يذكره الناس مع الأبطال الصناديد، ولجعلوا مصرعه كمصرع حجر بن عدي أنشـودة الكرامـة والعزة يحدو بها الركبان! ثم رووا شـعره الشـائن وزادوا عليه وأطالوا فيه... هكذا الناس.

أما الآن فهم يستنطقون يزيد بن مفرغ فلا يجيب! وهو ـ بعد ـ خائف راهب يزعجه شبح الدم المطلول.

ثم صفق الخليفـة بيديه فأتى صاحـب كنايته، فأمره أن يكسـو عبد الله بن عامر مطرفاً مذهباً، وأن يكتب إليه بضيعة واسعة في حمص!

وخرج ابن عامر مسروراً منتشـياً يلهج بالثناء على زياد وأمير المؤمنين.

❂❂❂

شكوى عاشق

كان الحرّ في دمشق شديداً ملتهباً، وقد جلس معاوية في قصره الأنيق متضجراً برماً بما يلفحه من شواظ، ففتح نوافذ المكان من جهاته المختلفة، وترك المراوح من فوق رأسه تستدني النسيم وتستميله فما ظفرتْ منه بشيءٍ، حتى إذا بلغ به الضّيق مبلغه أذن لجلسائه فتفرّقوا تباعاً، وبقي مع أمين سرّه نصر بن ذبيان، يبادله الرأي ويساقطه الحديث.

قال معاوية لصاحبه: لقد فتحتُ على نفسي باباً من العنت الكريه حين أذنتُ لهذه الوفود المتتابعة أن تتقاطر على مجلسي كالسيل ثم لا أستمع منها غير البغيض الثقيل..

فابتسم نصر في دهاء، وقال: لو استشارني الخليفة حفظه الله قبل أن يُرسل بمن يأتيه بهؤلاء لأشرت عليه بغير ما كان ولكنها إرادة أمير المؤمنين، فنظر معاوية إلى صاحبه كمن

يستطلع خبيئته ثم قال في هدوءٍ: لقد جمعت أنصار علي من أماكنهم النائية لأختبر وفائهم بعد موته، ولأسعدَ نفسي بعض الشيء حين أرى أعداء الأمس يتذللون في مجلسي ويتخشّعون، وما كنتُ أحسب أن كبرياءهم العلويّة ستلازمهم هنا مع هيبة السلطان ورهبة الجنود.

فقال نصر: وقد أحسنَ أمير المؤمنين حين استمال قلوبهم بما منحهم من أعطيات، فأصبحوا يلهجون بذكره، ويتحدثون بخيره، وتركوا مآزق الشقاق ومواطن الخلاف.

فتبسّم الخليفة في دهاءٍ وقال: أتظنّ يا نصر أنهم سيلهجون بالنثاء عليّ، لقد خدعتْك نفسك يا صاح!! إن حبّهم لعليّ قد رفرف بين الجوانح والشغاف وقد طاولتُ اليوم أعرابية جافية، وأرخيتُ لها العنان كي تقول ما تشاء، ثم منحتُها ذخيرة ثمينة من المال، وقلتُ في تطلع: لو كان عليٌّ على قيد الحياة ما منحك درهماً واحداً، فصاحتْ في تحدٍّ صارخ: نعمْ مان كان الإمام عليّ كرّم الله وجهه ليعطيني وبرةً من مال المسلمين!! أفتنتظر شكراً من هؤلاء؟ فأطرق نصر كالمفكّر، ولكن معاوية قال في ملاطفة: لا عيكَ يا نصر، فسأمنعُ هؤلاء من زيارتي بعد الآن، وسأحادثُ من يفد إليّ من شذاذ الأعراب، قلوبهم من الفكاهةِ النادرة ما يجلبُ عليَّ فَيْضاً من السرور والانتشاء!

فقال نصر في تـــأدب: هداك الله للبر يـــا أمير المؤمنين، وإن على بابك من هؤلاء البُداة من يضيقُ بهم الحصر، وهم يتلمســـون السـبيلَ إلى وجهك فلا يجدون، وقد رأيتُ قبل دخولي عليك أعرابيّاً يتوســـل وينزلف ويسألني أن أفسحَ له الطريق إليك، فما اســتطعتُ أن آذن في غيـــر ما أملك، وما أخاله إلا منتظراً يترقب، فإن شاء أمير المؤمنين أدعوه فذاك!

فقال معاوية في مرحٍ ظاهرٍ: عليَّ به يا نصر وعســـى أن يُمتعنا بالشهي الطريفُ.

خرجَ نصر يدعو صاحبه، وما لبثَ أن عاد بإعرابيٍ نحيلٍ ممروقٍ عليه أثمالٌ رثـــة تدلّ على فاقـــة متأصلة وفي وجهه شـــحوب ينطق بالحرمان واللوعة، وأن طيوف الكآبة لترسم على وجهه صورة حزينة تدعو إلى الحدب والإشفاق، فما أن وقعت عينه على معاوية حتى أكبّ على البساط لثماً وتقبيلاً، ثم نظر إلى الخليفة نظرة ضارعة كمن يستأذنه في الحديث.

قال معارية في هدوءٍ وقورٍ: مَنْ أنتَ أيّها الرجل ومن أيْن أقبلت؟

فقالَ الأعرابي في نغمةٍ حزينةٍ والهة: أنا سعدُ المذري يا أمير المؤمنين وقد طويتُ إليك من الأرض من المدينة حافياً غير منتعل وجوعانَ غير آكل، وظمآن غير ريّان..

فضحكَ الخليفة ثم قال: وهل خَلَتْ مدينة رسول الله من الكرماء الأجواد حتى تضيق بك على رحبها الشاسع فتسرع إلى دمشق طاوياً تتلمس هبة أمير المؤمنين!

فأسرع الأعرابي يقول: لستُ طالبَ مال يا سيدي، ولكني مظلوم ينتصف لنفسه، وقد نزلت بي شدة ليس لها سواك.

فقال معاوية: ولِمَ لم تتوجه إلى مروان بن الحكم حاكم المدينة من قبلي ونائبي عليها بين الناس!! دُون أن تعتسف الطريق!

فزفر سَعد زفرة حارة ثم قالَ وماذا أصنعُ إذا كان مروان بن الحكم غريمي العنيف.

فنظرَ معاوية إلى الرجل الساخر وقال: مروانُ بن الحكم شيخ بني أمية الحصيف وداهيةُ العرب غريمك أنت أيها المسكين!!

فطأطأ الرجل رأسه إلى الأرض وقال في كآبة: هذا ما كان!

فالتفتَ معاوية إلى نصر وقال أمر عجيب! فابتسمَ نصر في لباقة، وقال: لقد صحّتْ فراسة أمير المؤمنين، فهؤلاء الأعراب يقدمون علينا دائماً بالطريف العجيب!!

ثم نظر الخليفة نظرة فاحصة إلى الأعرابي، وقال له أبسط ظلامتك دون تزيد أو افتراء، وسأفصل بينكما بالحق الصريح!

قال الأعرابي، لقد أجبرني مروان على أن أطلّق زوجتي سعاد وزادَ فسجننى في محبسه حتى انقضتْ أيام العدة، ثم اقترنَ بها كرهاً دون تودّد، وتركني هائماً تائهاً أبحث عن صبري فلا أجد، والتمس عقلي فلا أستطيع!!

فنظر الخليفة إلى نصر... وكأنه يطلبُ أن يظهر رأيه فيما سمع، فقال نصر: إن أذن أمير المؤمنين بابتعاد الأعرابي قليلاً عن مجلسنا الآن كاشفته الحديث، فصفّق معاوية بيديه فدخل حاجبه الأصهب فأمره أن يحتجز سعداً لديه إلى حين ثم أقبل على جليسه يستمع منه ما يقول!

قال نصر بن ذبيّان: لقد كان اختيار مدينة رسول الله لإمارة مروان بن الحكم وضعاً للشيء في غير موضعه، فالرجل - في رأيي - قاسٍ ظالم لا يلتزم حدّاً رادعاً في تنفيذ رغبته وقد كانت المدينةُ مسرح رسول الله وخلفائه من بعده، ساروا في حكمها سير العدالة والرشاد فعرَف أهلوها عنهم سلامة الرأي وعدالة الحق ثم فوجئوا بمروان فرأوا ما لا يعهدون من شطط المغالاة ونزق الهوى، فضجّوا وبرموا وما أظن سعداً هذا إلا محقاً فيما يقول!

فنظر معاوية إلى نصر وأجاب في هدوءٍ: لقد كان اختيار مدينة رسـول الله لإمارة مروان وضعاً للشيء في موضعه من وجهة نظري الخاصة وليسـت وضعاً للشيء في غير موضعه كما تظن، فأنـا أعلم أن مروان طموح يشـرئب إلى الخلافة ويتمنى من أعماقه أن يرتفع على جنازتي صوت النوائح في أقرب وقت يكون، فيسـمو إلى مأربـه الخطير، وقد اخترتُ له المدينة بالذات ليأتي بها من شـروره مـا يدفع أصحابها إلى الشـكاية والتنديد، وأهل المدينة فيما أرى قوم غيرُ أباة لا يسـكتون على ضيم أو يصبرون علـى باطل، وفيهم أهل الرأي والمشـورة من نجباء قريش فإذا وصموا مروان ببوائقه فهيهات أن يسير له ذكر، أو يتمهد طريق لمبتغاه!!

وقد تحقق ما أملت فلم يحمده حامد، ولم يمض بتقديره حديث..

قال نصر حيّا الله أمير المؤمنيـن وبيّاه، لقد خبر النفوس فكشف عن سجوف الرياء والمصانعة كما درس مدن الخلافة مدينة مدينة فرمـى كل ناحية بمن يوافقها مـن أولياء حكمه وأصحاب سـلطانه!! وما أرى فـي حادث سـعد إلا قنطرة للتشهير بداهيةٍ ماكرٍ جاوز الحدّ وجانب القصد، فإن رأى أمير المؤمين أن يناقش الأعرابي مناقشـة فاحصة ثم يصدر حكمه

بما يشـــتهي كان في ذلك صلاح أمره، وطمأنـــةٌ وادعةٌ لمن يستجير بعدله من بأس الباطشـــين، فصفّق معاوية بيده ثانية فدخل الحاجب محيياً فطلب سعداً بإيماءة موجزة وسرعان ما أقبل، وقد ذهب عنه الروع! وأحسّ ببرد الراحة يســـري قليلاً إلى نفسه فملك زمام قوله، وشافه الخليفة في ثبات واتزان.

قال الخليفة كيف تزوجت سعاد يا سعد!!

فقال الأعرابـــي حفظَ الله أمير المؤمنيـــن إنها ابنة عمي، وقد كنا صغيرين نخرج إلى الباديـــة فنرعى الغنم في طهارة بريئة، فتمضي السائمة متلمسة نبات الأرض كما تشاء ونظلُّ معاً نتجاذب حلو الحديث ومعسول الكلام طيلة اليوم حتى إذا اســـتأذنت الشـــمس للرواح نهضنا معاً فجمعنا مما تفرق من الحيوان وكررنا راجعين إلى خيامنا القريبة، وفي نفســـينا شوق مبرح إلى أن تشرق شمس الغدِ فنستأنف ما كنا فيه من ســـمرٍ وإمتاعٍ، وما زلنا كذلك حتى أسلمنا الصبا الغصن إلى عنفوانِ الشبابِ، فتقدّمتُ إلى عمي فطلبت يد ابنته، فاشترطِ صداقاً كبيراً أعانني الله على تحصيه وتم اللقاء!!

قال معاوية ألم يكن بينكما حب تداوله الناس؟!

قـــال الأعرابي كان بيننا حب صامـــت جهدنا كل الجهد في إخفائه واكتتامه لما نعلم من أن ذيوع الشوق يحول دون

الزواج!! وكانت صاحبتي عاقلة متزنة فلــم تظهر لأهلها ما يكشــف عن ميلٍ أو ينمُّ عن كلمة، وكنت كما كانت أتكلف معارضتهــا أمام الناس، وأطــري مَنْ دُونها مــن اللذات في إسهابٍ مموّهٍ حتى غفلت الأعين المتيقظة، وسكن الهاجس الملم!!

فضحك الخليفة وقال في ملاطفة: حذقتما فن السياســة في البادية يا رعاة الأغنام!!

فقــال نصر في توددٍ ظاهــرٍ: إنها فطنة الأعــراب يا أمير المؤمنين!!

فنظر معاوية كمن يفكر في مشــكلٍ دقيقٍ ثم قال: وكيفَ وقعتْ زوجتك في شرك مروان!!

فتأوّه ســعد تأويهةً حــارة ثم قال ودموعه توشــك أن تنحدر، لقد مرّتْ بنــا الأيام الأولى حلــوة صافية، فكنت أحضر لزوجتي ما تريد من الطعام واللباس والزينة، وكنت لفرط صبابتي بهــا لا أمنع عنها شــيئاً مما تــود، فلجأت إلى الاستدانة والإســراف حتى عصفت مآربها بما جمعتُ وادخــرتُ، وعرضــتُ ناقتــي وأغنامي للبيع عن ســماحة واغتباط... ثم زارنا والدها ذات مســاء فلم ير ما يعهد من أســباب الرغد وأفانيــن الرفاهيــة وأدرك أن الفقر قد أطبق

علينا بقبضته العسيرة، فأرعد وأزبد، وأشار بأن أعجّل بتطليقها لتجد الكفء، الموسرَ من الأزواج فأغلظتُ له القول، وجابتهتُه بما أجبرني عليه شطُطُه البالغ في مغايظة ولجاج... فرفع الأمر إلى مروان!! وحلّت ساعة المحاكمة فرأى الحاكم من سعاد بدراً يتألق بالجمال ويشرق بالفتنة والروعة فملكتْ عليه عقله ومال بوالدها ناحية فعرض عليه أن يتزوجها بعد أن يُكرهني علىتلطليقها وبسط له يديه بما أخذ عينه من الدرّ والجوهر فرحّب عمي بمصاهرة الأمير...

وفوجئتُ بمن ينهال عليّ بالسياط المحرقة فما انقطع شواظها اللاهب عن جسدي الناحل حتى نطقت باليمين!! ثم سُحبتُ على وجهي إلى ظلمات المحبس أتأوه وأتوجع... ولا أدري متى يكون الخلاص، ومرّت شهور خمسة خلتها أعواماً ثقيلة بطيئة حتى إذا انقضت عدة الزوجة المكرهة على أمرها زُفّت إلى الأمير في بيته. وأُطلق سراحي لأهيم في الطريق على فزعٍ ووحشةٍ ثم آتي أمير المؤمنين فأحتكم إلى مروءته وأطمع في عدله الأكيد!!

قال معاوية ـ وقد هزّ رأسه متأملاً ـ ستمكث لدينا أياماً حتى تذهب الرسل وتأتي بما يكشف الحق الصريح!

فأكبّ سعد على البســاط يقبّله ويمرغ في ديباجه الناعم جبينه وخديه ثم نهض إلى منــازل الوفادة ينتظر ما تتمخض عنه الأيام في خطبه العنيف.

أمــا معاوية فقد خلا بصاحبه يستشــريه، وقد أدرك نصر بحصافته ما يتردّد بنفس الخليفة نحو مروان، فرأى أن يُشير بما يقع من نفســه موقع الإرتيــاح، وقد أظهر جــداً حازماً حين بدأ يقول.. إن اغتصاب زوجةٍ حســناء من رجلها الوفي جريمة نكراء، ولو علم مروان أن المأساة قد انتهتْ إلى أمير المؤمنين ثم سحب عليها ذيلَ الإغضاء لتمادى في مظالمه، وقد يأتي من المآثم ما لا يُحتمل فتثــور عليه النفوس ثورة ينتقل صخبها إلى مقــام أمير المؤمنين، فهو الذي أقامَه والياً بأمر وينهى كما يشاء!! فلا بدّ من ردعه والتشهير به جزاء ما أسلفت يداه... ثم إنك يا أمير المؤمنين لن تنسى موقفه من مبايعة نجلك يزيد فقد شــقّ العصا وجاهر بالمخالفة، ولولا سعة صدرك ما أمعن في اللجاج دون استيحاء!!

فردَّ معاوية في دهاء: وهل كنــت تريدني أن أبادرَ بعزله حين أظهرَ الخلاف في مسألة يزيد!! فوالله لو تمّ ذلك لانحاز إليه من أُميــة فريق كبيــر، فأتعرض للعصاين فــي جبهتين متباعدتين، جبهة داخلية يشــغب فيهــا ذوو الرحم من أولى

القرابة، وجبهة خارجية لا أزال أكابد مــن صعابها ما يرهق ويبيد!!

ولعل فريقاً من هؤلاء ينضمون إلى أولئك فيتزايد الشــرّ ويعم البلاء، لقــد انتظرتُ على مضضٍ ولم أشــأ أن أعقب على ما قال بــل بعثت إليه من التحف والكنوز ما أســكتَ لسانه إلى حين! وها هي ذي فرصة سانحة لا بد من اهتبالها قبل أن تفوت فكيف السبيل؟

قال نصر بن ذبيان: سأرحل من الغد إلى المدينة يا أمير المؤمنيــن، ولن أكلمه في خلوة ســاكنة بل ســأنتظر صلاة العشــاء حتــى إذا أقبل مع القــوم وامتلأ المســجد بالراكع والســاجد والقائم أعلنتُ إليه أمر أميــر المؤمنين في طلاق ســعاد فأنبّه بذلك مَــنْ غَفَلَ عن جرمه الشــنيع ثم لا أغادر المدينة حتى أصحبها إليك وقد أخزيتُه في ملئه فيستكين!!

فَربتَ الخليفة برفق على كتف صاحبه.. وأومأ إليه إيماءة الموافق المقدّر، وأذن له في السير:

وشــهدت المدينة بعد أيام نصر بن ذبيــان نديم معاوية وأمين ســرّه يذهب إلى مســجد رســول الله فيصلّي ركعتين خفيفتين بعد المصر ثم يطيل المكث بالمسجد فلا يريمه إلى قصر مروان كما اعتاد رسل دمشــق أن يفعلوا في كل سفارة

تتاح!! ويبلغ النبأ مسامع مروان فيتهيأ لاستقبال صاحبه، ويفكر فيما عسى أن يكون قد أتى به من المهام فيتوافد على ذهنه عشرات الأمور غير مسألة سعاد، ثم يدير في نفسه إجابات مختلفة عن أسئلة تتعلق ببيعة يزيد، واحتيال معاوية وانقسام بني أُمية، ليكون على استعدادٍ تامٍ للإجابة إذا ناقشه نصر بمسجد الرسول على رؤوس الأشهاد حتى أذن المغرب فنهض الوالي كما يفعل دائماً إلى المسجد الجامع ورأى نصراً يجلس بجوار المنبر، فأشاح عنه متجاهلاً مكانه وأدّى الفريضة مع المصلين ومكثَ في رهطٍ من صحابه ينتظر صلاة العشاء!! وقد فطن نصر إلى وجود صاحبه فعلم أن المسرَحَ قد هُيئ للتمثيل الناجح، إذ اجتمع النظارة المرتجون وتطلعت الأسماع إلى ما سيقال، فتوجه إلى الوالي مسلماً في تحفظ واتزان، ولم يشأ مروان أن يزيد على غير الإجابة الرسمية، فردَّ السلام بصيغته المعهودة، وتلاحظ الرجلان في صمت، وقد شخصتْ الأبصار وامتدت الأعناق مشرئبةً إلى مجهول لزيد تتوقعه ولا تبين ملامحه في وضوح!!

وهنا يقول نصر: (يا مروان):

لقد ساء أمير المؤمنين حفظه الله أن تُقدم على الزواج من امرأةٍ لا تريدك فتجبر زوجها إجباراً على الطلاق وترمية

في غياهب السـجن حتى تنقضي أيام العـدة.. ثم تقذف به ليهيم تائهاً شارداً حتى يدركه الخليفة بعدله الرحيم، وها هو ذا يرسـلني لك لتطلق الزوجة المغصوبة دون إمهال على أن أسير بها فوراً إليه فترد إلى كفئها الكريم.

فوجئ مروان بالخبـر!! فبحث عن كلمات تسـعفه في تبرير موقفه فأدركته الحيرة المذهلة وتصبَّب جبينه عرقاً ينطق بالخزي والخجل، وقد أثار ذلك بعض من يبغضونه من أهل المدينة، فتجمعوا حول نصر يسـرفون في إيضاح ما يرتكبه الوالي من مؤاخذات!! ونصر يفسح لهم من اهتمامه واعتنائه معلناً أن معاوية لا يرضى أن يُظلم إنسـانٌ في خلافته، وأنه يُحاسب الولاة ـ أدنياء وبعداء ـ جميعاً على ما يقترفونه من مغارم بين الناس وسينقل إليه ما سمع دون تزيد أو مجاملة!! ثم توجه في نشـوة الظافر إلى مروان وأعلن أنه مسـافر مع سعاد في الصباح ويريد أن يسمع يمين الطلاق، ورأى الوالي أن دَوِيّ المسجد كاد أن يخرسه على وهن في السمع وتقدم في السن. وأنه إن أبطأ قليلاً لا يأمن أن يقذفه شاتمه ببعض ما يؤذيه لا سيما وقد أدرك جنده الخاص هوانه على الخليفة فليسوا بطائعيه!! إن أمرهم بإرهاب الحاضرين، فلفظ اليمين في ألمٍ صامتٍ وحزنٍ دفين!

وأشــرق الصبــاح فحملت ســعاد في هــودج أنيق إلى دمشــق!! وجدّ نصر في مســيره حتى قدم إلــى الخليفة في بضعة أيام!! وقد نقل إليه صورة أمينة عما قام به في مسجد رســول الله ﷺ، فاطمأن معاوية إذ تأكــد أن مروان ليس من معشــره في عزة تمنــع أو بأس مخيف... وصمــم على أن يجاهر ببيعة يزيد دون اكتراث، فقد أوصدت الجبهة الداخلية إلى الأبد بانخذال ابن الحكم وكسداه، وبقيت جبهة واحدة تتطلب الصبر الطويل.

ومثلتْ سعادُ أمام الخليفة، فماذا رأى؟ لقد شاهد حُسْناً أخاذاً يكتســح ويروع، فعــذر مروان ـ غريمــه ـ إذ وقع في ســحرها الخلاب، ثم أخذ يتحســس قلبه في صدره فلمس طائراً مغلــولاً يضرب بجناحيه على غير اســتقرار... فأطال إليهــا النظر، ثــم صفق فأتى الحاجــب لينقلها إلــى الغرفة المجاورة، كما أمر معاوية وكأنّ نصراً قد لاحظ ما طرأ عليه من انفعال فأطرق برأسه إطراقة قطعها عليه الخليفة حين قال:

مَن يدري لعلها كانت تحب مروان وتبغض سعداً، فكيف نجبرها على زوج تأباه!

فقال نصر: ســلها يا أمير المؤمنين لتفصح عما تكنّ من صبوات!!

فابتسم معاوية في خبثٍ وقال: لقد طلقها مروان، فما من سبيل إليه بعد الآن!! فهل لك في سؤال حاسم تكشف به عاطفتها دون حِجاب؟

فقال نصر: لقد لمستُ شواهد الفرحة على وجهها حين أخبرتها بالمدينة بأن سعداً ينتظرها بدمشق!! فأبدتْ من البشاشة ما يهتك كل نقاب!!

قال معاوية في عناد: وإذا خَيّرْتُها بين سعد ومروان وأمير المؤمنين فإلى أي ناحية تميل؟

فتلعثم نصر قليلاً غير أنه سيطر على ثباته فجأة فقال: هي أمامك يا مولاي فسلها كما تشاء!!

وكانت لحظة محرجة حين وقفت سعادة مرة ثانية أمام الخليفة لتسمع هذا السؤال من شفتي أمير المؤمنين:

إيه يا سعاد أيُّهم أحب إليك أمير المؤمنين في عزه وشرفه ونعمته؟ أم مروان في عسفه وجوره؟ أم سعد في خشونة عيشه وسوء حاله؟

فنظرت الفتاة نظرة أخاذة ذات معنى كبير، ورفعت جبينها المتلألئ إلى أمير المؤمنين، ثم قالت في تؤدة وثبات: مولاي لن أخذلَ سعداً وقد شربت معه من قبل كؤوس الصفا فلأَذُق معه الآن ضروب البلاء.. سعد مني وأنا من سعد!!

دهش معاوية وأكبر وفاءها النادر، فمنحها ثروة ثمينة تكفُّ عنها بؤس الأيام، ودعا بابن عمها المشوق، فرجاه أن تمكث في مقاصير حرمه بدمشق حتى تنقضي العدة، وبعدها تزف إليه بعقدٍ جديدٍ!!

فرقص قلب الأعرابي في صدره، وانكب على قدم الخليفة يلثمها في غبطة واهتياج!!

وخرجت الفتاة إلى حيث تنتظر يومها القريب، ومن ورائها سعد يستحث الليالي ويستبطئ الأيام!

قال معاوية لنصر متراجعاً ـ وقد انفرد به ـ: أتراني كنت جاداً حين طرحت عليها هذا السؤال؟

فقال نصر متخابثاً: معاذ الله يا أمير المؤمنين! لقد كنت تستطلع حقيقة شعورها نحو مروان!!

ooo



على ضفاف النيل

جلس عبدالعزيز بن مروان والي مصـــر في قصره الذي بناه بحلـــوان يتأمل حاضره وماضيه ويقول في نفســـه: هأنذا أقيم في مكانٍ ناءٍ عن عشـــيرتي وأهلي منذ عشـــرين عاماً، وليس بمصر ما بدمشـــق مـــن بهاء الخلافة، وعـــزة الحكم، واجتماع القبائل، وازدخام الوفود، ولو تركتُ وشأني لفارقتُ إمارة مصـــر، وانفردتُ بـــذوي مودتي في قصـــور أُمية على ضفاف بردى العزيز!!

ولكن أبي مروان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قـــد ألزمني إمارة هذا البلد، وقال فيما أوصاني بـــه: «لَأَنْ تكون رئيســـاً في مغتربـــك النازح، تُصْدرُ الأمرَ والنهي، ويؤملك المؤملون من كل فجٍ، خيرٌ من أن تُصبح شخصاً مهملاً في بلدك وبَيْنَ معارفك» ولعل الحق معه ولا أعلم!

ثم أسندَ رأســه إلى يده كأنما يراجع نفسه فيما نتحدثْ به إليه، فابتسم ابتسامة عابرة حين تذكَّر أنه أميرٌ لا كالأمراء، فجميعُ خراج مصر في يده، لا يرســلُ شيئاً منه إلى دمشق، وأخوه عبدالملك يَستشيره ولا يملك أن يَعزله كسائر الولاة، فهو أمير وطيدٌ لا أحدٌ يعلوه غير الله، وماذا يريدُ من دمشق، وفيهــا تتزاحم الأعبــاء، وتتربــص المكائد، ويســير النفاق والشقاق على قدمٍ وساق!!

أما هو في إمارتــه الهادئة فآمن الســرب، نافذ الكلمة، مجتمع الأمر، ينظر حواليه فلا يجد غيــر الطاعة والإذعان، وماذا يبتغي في دمشق غير ذلك؟! لئن كانت مراد الفصحاء من ذوي البلاغة والشــعرَ وملجأ الوافدين من أولي التزلف والمديــح؛ فإن هؤلاء جميعاً يســعون إليه بمصر فينشــدون مدائحهم مُســهبين. ويغدق عليهم إحاســنه كما يغدق أخوه سواءً بسواء وحســبه أن تكون مصر على أيامه معقد الآمال ومناط الأحلام!

كان الأمير غريقاً في هواجسه تلك تتنقل به من مضطرب إلى مضطــرب، حين دخل عليــه حاجبه الخــاص يعلن أن الشــاعر العذري جميل بن معمر صاحب بثينة، قد وفد عليه مسلّماً، وهو في انتظار الإذن خارج الباب، ليُؤْنسَ الأمير!

وابتهجَ عبدالعزيز بمقدم الشاعر: وفرح كأنما فوجئ ببشارةٍ سعيدة، وقال في نفسه: سأتحدثُ إلى أنبلَ شاعر عرفه الأدبُ لعصره، فجميلٌ إنسان أريحي لا يَؤُم الأمراء لمديح يُنشد، أو عطاء ينال، وقد طوى شبابه الأدبي لم ينظم بيتاً واحداً في الثناء على أحد، ثم إنه عاشق عميد، له من غرائبة وعجائبه، ما يجذب الأسماع ويستهوي الألباب، وهو لا ريب سيمتعني بأعذب سمر وأشهاه! ولم يتمالك أن صاح بحاجبه: أدخله محترماً مبجلاً.. فأسرعَ ليعود به في توددٍ واحتفال.

نظَرَ عبدالعزيز إلى زائره الكريم فلم يرَ ما يعهده في وجهه من تألق الصفحة، وبهاء الرونق، وكانت له به معرفة بالجزيزة ـ بل رأى الشحوب الكئيبَ يصبغ ملامحه، ويشي بانقباضه والتباعه!! وإن عليه من الهزال النحيل ما يؤجج لواعج الحسرة والتلهف، فسألَ عبدالعزيز في أسف حائرٍ: كيف تبدلت بك الحال يا جميل؟

فابتسم الشاعر ابتسامة باهتة، وقال في مرارة: لقد ثارتْ عليَّ ثوائري بالحجاز، فهرعت أسكّنها قليلاً على ضفاف النيل، وعسى أن أجد هنا في مجابهة اليأس الصارم برد الراحة والهدوء.

قال الأمير كالمتجاهل: أي ثوائر تعني يا فتى العذريين؟

فهمس الشاعر في عتبٍ: كأن الأمير حفظه الله لا يعلم ما تناقله القوم عني من لواعج الصبابة وثوائر التباريح!!

فتراجع عبدالعزيز يقول: كيف؟ وأنت شهير جهير! لقد أسرعتْ إلى قصائدك الرقاق، تنطق بكوامن الشجن، ولواهب الأسى، وإنها ـ شهد الله ـ لأغنية الركبان، وترنيمة السامرين.

فأومأ جميل برأسه كالشاكر، وسأل في حيرة! وماذا يرجع إلى قلبي المفطور من غناء الركب، وترنيمة السامر، وكبدي حري لا تعرف غير اللوعة والأنين!

فابتسم الأمير، ونظر إلى صاحبه في عطف، ثم قال: لقد جنتْ عليك رجولتك يا جميل، وإنها لجزية فادحة يؤديها الرجال في كل جيل!! أخبرني بربك عن طرائف وقائعك فقد ألممتُ بملح لطيفة منها، وأريد المزيد!!

فتأوهَ العاشقُ تأويهةً حارةً وقال: كأن الأمير لا يعلم أن الحديث ينكأ الجراح، ويضرم السعير!! ولو كان ذهني مجتمعاً لبادرتُ فحدثتُ الأمير، ولكن القلب تائه، والفكر عازب، واللسان بكئ.

فربت عبدالعزيز بيديه على صاحبه وقال ملاطفاً: أعلم أن الحديث عن الأشجان يخفف كثيراً من جهامتها الصارمة،

وكم من ضائق بهمّــه الكارب، أذاع حديــث إلى ذي أنين، فانفرج ضيقه، واتّســع صدره، ولي أمــل أن يكونَ حديثك معي مدعاةَ الترويح والتنفيس، على أني لن أتعبك في تتابع التسرد، فأسأل، وعليك أن تجيب.

قالَ جميل في أدب: أما إن رغب الأمير فله أن يسأل كما يريد...

فضحك عبدالعزيز في نشــوة، وقال مبتســماً: حيَّاك الله يا جميل، لقد أبيتَ إلا مــروءة عُذرية! فأخبرني إن شــئت كيف بدا هيامك بهذه الغادة المفتان؟

فزفرَ العاشق زفرة كاوية، ثم أسعفه نشاطه في فورة دافعة من روعــة الذكرى فبــدأ الحديث في تتابع وكأنــه يقرأ من كتاب:

قال جميل: كنتُ أســير ذات صباحٍ هادئ النفس بوادي بغيض، ومعي فصيــلان أرعاهما، فدنوتُ مــن الماء لبعض شــأنهما، فجاءت بثينةُ وهي يومئذٍ جويريــة صغيرة، فَرَمت فصيلي ببعض الرمل فشردا هائمين. فملكني الغيظ. وأغلظت لها القول. فردت عليّ بمثل ما قلت. فما أن سمعت حديثها. ورأيت قســماتها الثائرة. حتى انكســرت لها إنكســاراً قسّم نفسي إلى شُعَبٍ مختلفات!!

فقال عبدالعزيز لعل هذا تفسير قولك القديم:

وأوّلُ ما قــادَ المَــودّة َ بيننا بوادي بَغِيضٍ، يا بُثين، سِبابُ

فقال جميل: أجل أيها الأمير!

فنظر إليه عبدالعزيز نظرة ضاحكة وقال في تحبّب: عرفنا مطلع القصيدة، فكيف اشتهر أمركما في الناس؟

فعضَّ جميل شفتيه، كأنما يأسف لشيءٍ قد كان ثم قال: لم ألبــث أن جاش خاطري بالشــعر فنظمــت خوالجي في قصائد ومقطوعات، وطار بها الــراوون في كل مكان، حتى انتقلت إلى بثينة فأعجبتها أيما إعجاب، وطفقتْ تتعرض إلى حينٍ ألمَّ بحيها مشجعة محبيه فملكت فؤادي وأسرت نهاي!

فــردَّ عبدالعزيــز كالناصح: لقــد كنتما مخطئيــن فيما أتقيتماه!! كان الأولى أن تكتمــا ما بقلبيكما من الحنين فلا تعلناه، ثم تدخل البيت من بابــه. فتتقدم إلى والدها خاطباً، ولن يجد لهــا زوجاً كريماً مثلــك، فيلبي الرجــاء في فرحٍ وابتهال.

فأطرق الشــاعر إطراقــة حزينة، وقال في أســفٍ ملتاع: ليــأذن لي الأمير حفظــه الله أن أقول في صراحــة واثقة: إن العابر على الشــاطئ لا يعرف ما يكابده السابح من أهوال.. فالحبُّ كما كابدتُه حالةٌ جنونية تسلب العاقل نهاه. فلا يفكر

في أمره تفكير الهادئ الرزين، بل يظل كالحالم الواهم، تمتد أمامه الرؤى البهيجة دون أن يملك لها تحويلاً واختلافاً: فهو منها في لذة تشغله عن نفسه. وتملك عليه منافذ حسه، حتى تحين الساعة المحرجة فيستيقظ من سباته، وقد تلاشى حلمه البهيج ولم تبق غير الحسرات.

فاهتزّ الأمير اهتزازة السرور، وقال في غبطة: أنت شاعر يا جميل في حديثك كما أنت شاعر في قصيدك فبالله إلا أفضت في هذا الإبداع!!

فنظر إليه جميل كالعاتبُ وقال في نعمة حزينة: علم الله ما أردت التزيد في البيان، ولكني أذكر لك أن رشادي كان منتهباً مسلوباً، وإلا فكيف جاهرت بصبوتي وأنا أعرف ما يعقب ذلك من الحرمان والفراق!! كما جرت به تقاليد البداة!

فردَّ عبدالعزيز يقول: وقد كان رشاد بثينة مسلوباً ضائعاً كرشادك.. وإلا كيف جازفت بالتعرض إليك، وجاهرت بالهيام واللوعة، وهي تعلم ما يتهدد قلبها من أهوال... فأطرق جميل كئيباً، ولكن الأمير يواسيه فيقول: لا بأس يا جميل، فهذا ما كان فاعتدلَ الشاعر في جلسته وقال في حماسة: أقسم لك أيها الأمير أني لم أعشق جمالها الناضر

وحده. ولكن عشقت فطنتها المتوقدة وذكاءها اللماح: لقد كنت أبعث إليها رسولي بالرمز الغامض لا يفهمه أحد من الخلطاء فتدركه وحدها كما أردتُ على خير وجه يتاح!!

فقال عبدالعزيز سيحلو الحديث كثيراً يا جميل فاضرب لنا الأمثال.

فنظر الشاعر إلى جليسه ثم وضع يده على جبهته كمن يستذكر حادثاً بعيداً كادت تمحوه الأيام وقال في تؤدة وهدوء أعصاب: بلغ بي الوجد ذات عشية أقصاه وخشيت أن ألم بحيّها المستيقظ، وقد برقت الأسنة ولمعت السيوف، وأهدَرَ والي المدينة دمي إن ذهبتُ إلى هناك، فقلتُ: لا بد من الاحتيال، وتوجهتُ هائماً لا أدري أين أقصد، فرأيتُ في الطريق شيخاً وقوراً، يقودُ نياقاً كثيرة لبني حنظلة، فحييتُهُ تحية مؤدبة، فردّ عليَّ بأحسن مما حييت، وأخذتُ أساقطه فنوناً من الحديث حتى أنس بي وأنست إليه، وسألني عن حاجتي، فقلت في سذاجة متكلِّفة: أتعرف هذ الحي من بني عذرة فقال: نعم، فقلت إنّ لي ناقة سمراء تتظالع في سيرها، وقد ضلّتْ هناك، وبيننا وبينهم من العداء ما لا أستطيع معه الذهاب إلى هناك، فإذا قبلت أيّدك الله أن تذهبَ إليهم فتطوف بالمنازل سائلاً عنها، كان لك حسن جزاء وأوفاه

من الله، فقال الشـيخ: دونك نياقي فخذ منهـا ما تريد، دون أن تحوجني إلى مسيرة سـاعات!! فتصنعت الغضب وقلت: يا سـبحان الله، أبحثُ عن حاجتي فأرجعُ بحاجة سـواي!! وقطعتُ الحديث، فلما رأى الحنظلي أسفي البالغ خرج إلى بني عذرة يطرق الأبواب، ويقول من رأى ناقة سمراء تتظالع في سـيرها طرقت هذا الحي من أيام؟ حتـى إذا مرَّ بمنزل بثينة قالت في فرحة باسـمة: رأيتها يا عماه تطوف بشـجرة الأثل أمس عند العشـاء!! فمضى الرجل إلى شـجرة الأثل فلم يجد شـيئاً، وجاء ينبئني الحديث، فشـكرت له مسعاه! وانتظرت حتى جاءت العشاء وذهبت إلى الشجرة، فوجدت بثينة هناك!! ففرحتُ بلقائها فرحـاً جعلني أطير كالعصفور، وقلت في ابتسامٍ: من أنبأك أني صاحب السؤال؟ فقالت في دلالٍ: «إن النياق السمر المتظالمة كثيرة، وهي تأتي كل ساعة وتذهـب فلا بد أن يكون السـؤال على غير مأتـاه، فأجبت بما قلت»!! فقلت مداعباً ومن أدراك أني سـأفهم الجواب؟ فضحكـت وقالت: سـبحان الله، مـن يضع السـؤال يعرف الجواب!!

فهزَّ عبدالعزيز رأسـهُ فـي عجبٍ وقـال: وارحمتاه: إن للقلوب ألسنة لا تسمعها الآذان فقال جميل موافقاً: هو ذاك!!

ثم حضر شـراب الليلمـون المثلج فشـرب المتحدثان كأسين على رشفات متباعدة، واستأنف عبدالعزيز يقول: قد والله رحمتك يا جميل حين جاءتني الأنباء عنك، ووددتِ لو طارت بك الريح إلى مصر فأقنعك ببعض المشورة والسداد! وطالما كنت أسأل: أليس لجميل أب عاقل ينقذه أو أخ راشد يهديه؟

فائتلقت دمعة سريعة في محجر جميل توشك أن تنحدر على خده الشاحب وقال في اكتئاب: أبي، ما أبي، لقد أجهد نفســه في غير طائل، كنت أهيم في الطريــق إلى بني عذرة فأراه يتسلَّل خلفي متوسلاً، فأرحم سنه ودموعه، فأرجع معه، حتى تهدأ أجفانه في مرقدها بعض الوقت ثم: أهبُّ متسللاً، فينتبــه فجأة، ويتتبع خطــاي محاذراً أن يهــدر دمي الناس، ولا أنسى أنه قال لي، ذات عشـية، والبكاء يخنق صوته فلا يكاد يبيــن أي جميل حتى متى أنتَ عَمِــهٌ في ضلالك، ألا تأنف أن تتعلق بذات بعلٍ يخلــو بها وأنت عنها بمعزل، ثم تقوم من عنده إليك فتغرّك بخداعها، وتريك الصفاء والمودة وهي تضمرُ لبعلها ما تضمره الحرة لمن ملكها، فيكونُ قولها لك تعليلاً وغروراً.. إن هذا الذل مشين.. ولا والله ما أعرف أخيبُ سهماً ولا أضيع عمراً منك!!

فتأمل عبدُ العزيز وجه صاحبه، فرآه يصطبغ بشتى الألوان، فرحمه من أعماقه، ثم سأل في اهتمامٍ وبماذا أجبتَه يا جميل؟!

فقال في لوعة: قلت إن الرأي ما ترى يا أبتاه، ولكن هل رأيت أحداً قبلي قدر أن يدفع عن قلبه هواه، أو استطاع أن يمنع ما قدر عليه؛ والله لو قدرتُ أن أمحو ذكرها من قبلي أو أزيل شخصها من عيني لفعلت؛ ولكن أين السبيل؟

فقال عبدالعزيز: وارحمتاه لك ولأبيك! فتعجلَ جميل يقول في لهفةٍ: بل وارحمتاه لبثينة، لقد تحملت ألسنة الناس. وهي أنثى ضعيفة. يكربها أب فظ ثقيل، وأخ غيور متسرع، وقد تعرضت لسياطهما المحرقة حتى كادت أن تتمزق، فلا والله ما همّت بسلوان أو استكانت إلى ملام!!

فعضّ الأمير على شفتيه وقال: لو كنت مكان أبيها أو أخيها، لجابهت التقليد البغيض، وزففتها إليك بكل اعتزاز... ثم لا أدري لماذا يسومانها العذاب، وقد تأكدا من طهارتكما، واجتماعكما في ظلال الشرف والوفاء!

فردَّ جميل كالمأخوذ: ومن أنبأك يا مولاي بتأكدهما من طهارتي، وهما مرتابان يتسرعان؟

فأجاب عبدالعزيز في تؤدة: بلغني أن جارية وشت بكما! إليهما ذات ليلة، فقدما يسترقان السمع في الظلام،

وكنتما تتناجيان ببعض القول، فعلما عن طهارتكما ما يعجب ويزين، وقال أبوهـا لأخيها.. قـم بنا فما ينبغـي أن نكدر هذين!!

فقال جميل ـ وقد نظر نظرة شـاردة ـ لقد حدث ذلك يا سـيدي، ولكنهما لم يتقيّدا بما رأياه، بل انقلبا بعد ساعات يسـومان ابنتهما الضعيفة أحر العذاب ويزعمان أن الحديث مُعدٌّ مُهيّأ، ولم يكن خالصاً لوجه الشرف والعفاف!

فأطرق الأمير في تفكير، ثم قـال بعد لحظاتٍ: أصدقُكَ القول يا بنـيّ، هما معذوران فيما يتوجسـان مهما تأكدا من الطهـارة والنقاء؛ إن ألسـنة الناس تجعل الصباح المشـرق ظلاماً حالك الجنبات؛ وقد خاض فـي عرضهما الخائضون فالتهبت الصدور بالأحقاد!! وكم سـاءني أن تدفع حبيبتك إلى الاتهام الفاضح، دون أن نقدر ظروفها المحرجات مع ما بينكما من صبابة راعبة أوردتكما موارد الوبال!؟

فوقف جميل مرتاعاً كمن لدغته عقـرب بغتة، ثم أدرك تسـرّعه فجلس متضايقـاً وقال: كيـف دفعتُها إلـى الإتهام الفاضح يا مولاي؟!

فردَّ عبدالعزيز يقول: لقد نقل إلى الراوون أن أهل بثينة شـاءوا أن ينفوا عن ابنتهم ما تذيعه من وجدٍ وهيامٍ، فأعلنوا

أنكَ لا تحب بثينة نفسـها ولكـن تهيم بجاريتها السـوداء. فغضبتَ لنفسك، وواعدت صاحبتك على اللقاء في برقاء ذي ضال، ثم منعتها المسـير حتى انبلج الفجر ليراكما الناس!! وطاف بها الطائفون ليؤدوا عنها شهادة بلقاء!!

فقال جميل في انفعـالٍ يتحرق بصاحبه كـذِبٌ ما نُقل إليك يا مولاي، واللهِ ما اقترفتُ ذلك الشنّار، ولئن فعلتُ ما رويتَ، لرميتُ نفسي من قمة شمَّاء!!

فأجاب الأمير مشيراً بيده: صهٍ يا جميل، فالقصة لم تنته بعد لقد رددوا لك شعراً تقول فيه بشأن ما ذكرت:

ومَن كان في حبي بثينة يمتري   فبرقاء ذي ضال على شهيد

فأي شيء شهدتْ عليك به برقاء ذي ضال؟ إن لم يكن ذاك؟

فتنهّد جميل تنهداً شَـف عـن مرارة لاذعـة، وقال في همسٍ: هكذا تُحرف الأقوال، لقد زعم المغرضون لبثينة أني ألعبُ بها دون هوى مخلص فقلـتُ قصيدتي الطويلة أفصح بها عما أكن من تباريح، واستشـهدُ بمارح الأنس وملاعب الذكريات، ومن بينها برقاء ذي ضال.

فتبسم عبد العزيز، وقال ملاطفاً: رجوتُ لو نشدتني قصيدتك هذه، إذ لم يأت إلينا في مصر منها غير هذا البيت اليتيم!

فرفع الشاعر رأسه في اعتداد، وقال سيد الأمير قد آليت على نفسي ألا أنشد قصائدي للناس، كيلا أتخذ الأكيد من حبّي مطيّة للخطوة والاشتهار وإني لمستمسك بقسمي الأكيد، فلا يكنْ في صدرك حرج من هذا الإباء!

فدقَّ الأمير كفاً بكفٍ وقال متعجباً: وكيف يعرف العرب قصائدك، إذا أقمستَ ألا ترويها للناس؟!

فعجّل الشاعر يقول: تختلج في صدري العاطفة المتوثبة فأقول القصيدة كما تجيء دون تنقيح وتهذيب، ثم أتركها للرواية ينقلها لمن يريد، دون أن أقوم لنفسي بالإذاعة والإعلان!! وقد أخذت العهد على لساني ألا ينطق ببيت من الشعر في غير الغزل العفيف حذار أن أنحط بموهبتي إلى وهدات التملق والاكتساب!!

فأظهر عبدالعزيز عدم الإكتراث بما سمع، وقال في تودد: إذا أردنا أن نسمع بمصر شيئاً من غزل العرب في البادية فما نصنع في قسمك يا جميل؟

فقال جميل في بساطة، ذلك شيء يسير! أنشك قصيدة من غزل صاحبي كثيّر عزة، وإنه لمعجب رصين!!

فهزَّ الأمير رأسه متمهلاً، وقال في دعابة متكلفة؛ كثيُر عزة راويتُك وتلميذك كما أعرف من قديم. ولكن شعره

لا يجري في واديك؛ وقد سمعت ما سـمعت من غزله فما خرجت بطائلٍ يا جميل!!

فأظهر الشاعر تحمساً لصاحبه؛ وصاح في اهتمامٍ: اسمع يا مولاي قول كثيّر؛ ثم احكم عليه حكم الفاحص المستجيد!

يقول العدايا عزّ قد حلل دونكم   شجاع على ظهر الطريق مصمم

فقلتُ لها والله لو كان دونكم   جهنم ما راعت فؤادي جهنم

وكيف يروع القلبَ يا عزّ رائع   ووجهك في الظلماء للسفر معلم

وما ظلمتْك النفس يا عز في الهوى   فلا تنقمي حبّي فما فيه مَنقمُ

فتبسّم الأمير تبسم المرتاح ثم سكت قليلاً وقال، أخالك قد رويتَ من شعر صاحبك أحسـنه وأرقاه، ولكن اسمع إن شئت قوله:

ألا لَيْتَنا يا عَزّ من غير ريبة   بعيرانِ ترعى في الخلاءِ ونعزُبُ

كِلانا به عَرٌ فمَنْ يَرَنا يقُلْ   على حسنِها جرباءُ تُعدي وأجربُ

إذا ما وَردنا مَنْهلاً صَاحَ أهلُهُ   علينا فما ننفعك نُرمي ونضرب

وودتُ وبيت الله أنك بكرة   هجان، وأني مصعب ثم نهرب

نكون بعيري ذي غني فيضلنا   فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب

أفكان هذا القصيرُ الدميـم عدوّها أم حبيبها حتى يتمنى لصاحبتـه الرقّ والجـرب، والزنى والطرد والمسـخ! أفهذا إحساس صاق يا جميل؟!

فتنمر الشاعر ـ كمن يستعد للوثوب ـ وقال في حدة: إنه إحساسٌ صادق أيها الأمير، وأن يدركه غير عاشق محروم، لأن العاشق يعبّر عن خلجات نفسه في الصورة الأنيسة الحبيبة إذا هدأ، وقد تتخبط عاطفته في مأزق نفسي، إذ يتعرض لساعة عاصفة قاتمة تميد برجائه، فتمنحه الصورة المنقبضة الملتاعة، وهو في كلتا ساعتيه صادق مخلص إذ يرسم ما انطبع في خاطره من غير وصحو واضطراب وهدوء وسعادة وحرمان، أفترجون ـ سامحكم الله ـ من الشاعر أن يسكت عن سخطه وضجره، فلا يتكلم من غير الرضا والامتنان؟! قد تطلبون ذلك من السياسي المرن! ولكنكم لا تجبرون عليه العاطفي المهتاج!

فتطلع الأمير إلى صاحبه وجاش بنفسه سؤال ظن أنه سيقطع على جميل منافذ القول فلا يستطيع الاسترسال، فقال: وأنت تتعرض دائماً لعواطف الهجر والإنفعال، فلماذا لا تصوّر ما صوّره هذا الدعيّ في غزلك الملتاع!!

فردَّ جميل يقول: لقد عنفت والله أكثر مما عنف كثيّر فقلت:

رمى الله في عينْي بثينة بالقذي وفي الغرّ من أنيابها بالفوادح

وقلت عن نفسي متمنياً ما لا يتمناه عاقل:

ألا ليتني أعمى أصم تقودني بثينة لا يخفى عليّ كلامها

فاهتزّ الأمير اهتــزازة المعجب، وقال في ابتســام، لقد أنشدت شــعرك يا صاح ووقعت في الشــرك كما أريد، على أنك أحســنت الدفاع عن تلميذك وروايتك ثم ضحك وقال: وأظنه أحسن إليك يوماً ما في بعض شؤونك مع صاحبتك، فبادلته المحبة الوامقة والثناء المستطاب!

فأسرع جميل يقول إن إحسانه في هذه الناحية كثير وفير، ولن أنسى ـ مهما نســيت ـ أنه كان يأتي والد بثينة فيجالسه ويداهنه حتى يأنس به، ثم يروي له من شعره الرقيق لتسمع بثينة داخل المنزل فتشــير بحركة مستترة أو لفظ عارض بما يهيئ له سبيل اللقاء!! فأنعم بما أود!

فتعجل الأمير يقول ســأتعبك يا جميل وأطالبك بشاهد يسير.

فنظر الشــاعر نظرة المرتاح، ثم ضحك فــي خفة وهو يقول: لا تعب في سحرك يا سيدي كما تظن!! بل إني لأسعد حين أروي لك شاهداً يســيراً، فأذكر أن بثينة سمعت إنشاد كثيّر ذات صباح، فقذفت في الفضاء بحجر، وسألها أبوها ما هذا يا بثينة، فقالت في بديهــة حصيفة: لقد رأيت كلباً يأتينا من وراء الرابية إذا نوّم الناس فرميته بحجر ثقيل!! وأشارت

إلى كلب يعدو من بعيــد، فعرف كثير أنها حــددت الزمان والمكان في موعد حبيب، ورجع إليّ بأهنأ نبأ وأشهاه!!

فضحك الأميــر ثم قال: وهذا مثال ثــانٍ يدل على ذكاء بثينة، أضيفه إلى ما سبق من واقعة الناقة السَّمراء!

فتبســم جميل ثم قال: وهو أيضاً مثال رائــع يدلُّ على ذكاء كثير العزيــز!! فضحك عبد العزيز ثانيــة وقال: ولعلك لإخلاصه وحده تحب شعره يا جميل: فردَّ الشاعر في أدب، لك أن تظن ما تشاء يا سيدي الأمير!!

ثم دخل الحاجب يدعو ســيده إلى الطعام، فدعا جميلاً إلى مأدبة فتمنّع في أدب، فأقسم عبد العزيز أنه سعد بمجلس الشاعر سعادة يحسد عليها الأيام، وأن جميلاً لن يترك قصره بحلوان مــا دام مقيماً بمصر، ففيــه مقيله ومأكلــه ومثواه، فخضع الشاعر للقســم الصريح، وأقام أسابيع معدودة ممتعاً برعاية الأميــر وعنايته ثم ثقلت عليه العلّــة فلم تُجده عناية الأمير وحذق الطبيب، وخرج عبد العزيز باكياً يشــيّع جنازة عاشــق ملتاع ضاق به وادي القرى فأبقى عصاه مستريحاً في وادي النيل.

❂ ❂ ❂



خصمٌ عنيدٌ

كان عبدالملك بن مروان يجلس في ساعة من ساعات ضيقه وقلقه بقصر الخلافة متأمِّلاً مفكراً وعن يمينه عمرو بن سعيد بن العاص وعن يساره أخوه بشر بن مروان!! وكان الحديث يجري عن سيطرة عبد الله بن الزبير على العراق والحجاز.. وكيف طاول عبدالملك وأعياه.. حتى نفدت الحيل وقلّ الرجاء، فقال بشر لأخيه: يا أمير المؤمنين إن أفعال يزيد قد تركت الحجاز جمرة تشتعل، وليس بمعقول أن تهدأ النفوس هناك فتهفو إلينا مشاعر أهل الحرمين، وهم يعلمون أننا يوم الحرة أبحنا المدينة ثلاثة أيام بعد قتال عنيف، فنهبت الأموال وأزهقت الأرواح! وتشكف انتصارنا عن تهور فاضح هتكت به الحرمات! واندلعت الأحقاد!!

وانبرى عمرو بن سعيد يقول: ولم يقف الأمر عند المدينة بل زحفت جنودنا إلى مكة فأوقعت أهلها في حصارٍ

شديدٍ، وقاوم عبد الله بن الزبير جيوش الخلافة مقاومة بارعة فأحبه المكيون والمدنيون، وحفظوا له يده البيضاء في الذود عن الحرم وحماية البيت العتيق!!

فنظر عبدالملك إليهما ثم قال: نظلم يزيد إذا حملناه ملامة في ذلك إذ أحرج في أمره وسُب في أخلاقه فارتضى الأسنة مركباً غير ذلول!!

لقد رفض المدنيون بادئ ذي بدء بيعته وجاهروه بالعصيان، فأرسل إليهم الأموال واستقدم منهم الوفود فما نزلوا بساحته حتى غمرهم بالاعطيات الجزيلة والثراء الباهر، وظن أن هؤلاء الذين تقبلوا نعمته سيكونون ألسنة مخلصة تهتف باسمه وتنشر أمداحه! ولكنهم انطلقوا بالمدينة يكفرون آلاءه ويلعنون خلافته! ويقولون لحاه الله من صاحب لهو وشراب وحيوانات وغناء! ثم يستمطرون عليه اللعنات فأضرموا الثورة في النفوس!! وزعزعوا دعائم الاستقرار.. ووالله لو كنت مكانه ما صنعت غير الذي كان.

فقال بشرٍ في أدبٍ يراجع أخاه: رويدك يا أمير المؤمنين، فنحن لا نلوم يزيد أن حارب أهل المدينة حتى أذعنوا لخلافته! ولكننا نلومه أن بالغ في النقمة وأسرف في الانتقام، فحين قطفت جيوشه ثمار النصر تجبر قائدها

الغاشم مسلم بن عقبة!! وأسرف في القتل إسرافاً منكراً وأباح المدينة ثلاثة أيام لمن ينهب ويسلب ويهتك!! وقد كان في الإعضاء سعة! وفي التسامح تهدئة واستتباب!!

فقال عبد الملك معقباً: حتى إن مسلم بن عقبة قد جاوز الحدّ فألهب الصدور.. وما أظن يزيد قد دفعه إلى ذلك ولكن نشوة النجاح قد أعمته فتنكب عن الطريق.

فردَّ عمرو بن سعيد بن العاص يقول: لقد كنت يا أمير المؤمنين والياً على المدينة من قبل يزيد، وسُيستُ الناس بالملانية والاحتيال، فغضب يزيد عليّ! وأوصى مسلماً بالانتقام والإرهاب فهما بلا شك شريكان فيما كان.. وإذا مصرع الحسين قد ألهب علينا النفوس إلهاباً نعاني من صعابه ما يؤرق ويخيف فإن استباحة الحرمين الشريفين قد أمدت الضرام بضرام آخر فما ينقطع له لهيب!

فالتفت عبد الملك إلى أخيه بشر وقال في غيظ: وقد انتهز ابن الزبير كل سانحة تحين، فجمع حوله الناس وبنى لنفسه ملكاً عجز عن إنشائه الحسين ابن علي! وهو من هو بين العرب والمسلمين!! فعبس بشر في أسف وقال: صدقت يا أمير المؤمنين فابن الزبير داهية أريب وقد حدثته نفسه بالخلافة منذ استخلفه عثمان رضي الله عنه على داره قبل مصرعه!!

فقال في نفســه لا بد أن أجالد عليها القوم.. وإني لأعلم أنه ـ وحــده ـ هو الذي حمل أباه الزبير على شــقاق علي، كما اســتطاع أن يؤثر على خالته عائشــة فقادها يوم الجمل إلى حرب عادت عليها بالخــذلان.. أفكان يعارض علياً ويخضع بعد ذلك لبني مروان!!

فقال عبدالملك بعــد تفكير مقلق: ما أظــن أحداً أدرك خوافي ابــن الزبير كما أدركها معاوين بن أبي ســفيان.. فقد لمس تطلعه للســيطرة، وأدرك ما يثور في أطوائه من ترصد وارتاقب فجاهده وأوعده، وأوصى يزيد بالحيطة منه!! فيا له من خليفة بصير..

فرفع عمرو بن سعيد رأسه كمن يســتأذن في الحديث ـ فقال له عبدالملك وقد حدجه ببصر نافذ ـ أرى على شفتيك كلاماً يا عمرو فماذا تريد!!

فقال عمرو في تأدب مصطنع: أحب أن أؤكد ما قاله أمير المؤمنين، فقد ســمعت معاوية يناقش ابــن الزبير بمكة في أمر البيعة ليزيد، وقد أطرق القوم حائرين لا ينبسون واندفع عبد الله يقول: «نخيّرك يا أمير المؤمنين بين إحدى ثلاث أيها أخذت فلك رغبة وفيها اختيار، إن شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله ﷺ، قبضهُ الله ولم يستخلف، فدعْ هذا الأمر حتى

يختار الناس لأنفسهم، وإن شئت فاصنع ما صنع أبو بكر إذ عهد إلى رجل بعيد، وترك من ولده ورهطه الأدنيين من كان أهلاً لو أراد، وإن شئت فاصنع ما صنع عمر بن الخطاب فقد صيّرها إلى ستة نفر من قريش يختارون رجلاً منهم وترك ولده وأهل بيته وفيهم من لو وليها لكان لها أهلاً» فكلف معاوية البشر واتجه بنظره إلى الحسين بن علي وقال لابن الزبير: «إياك أن تقع في عرانين عبد مناف، أما والله لئن دفعت في بحور بني هاشم وأُمية لتغطنك بأمواجها ثم لتوهين بك في أجاجها».

فتلفت عبدالملك يسأل عمرو بن سعيد: وهل سكت ابن الزبير بعد هذا التحقير!! فلجلج عمرو قليلاً ثم تشجع يقول في اهتمام: ليته سكت يا أمير المؤمنين! لقد غلبته سلاطة لسانه فاندفع يقول بمرأى ومشهد من الناس: أسألكم بالله أتعلمون أن أبي حواري رسول الله وأنا أباه أبو سفيان وأن أمي أسماء بنت أبي بكر وأمه هند آكلة الأكباد، وجدي الصديق وجده المشدوخ ببدرٍ ورأس الكفر، وعمتي خديجة وعمته أم جميل زوجة أبي لهب وخالتي عائشة أم المؤمنين وأنا عبد الله!! فبهت معاوية وانتقل بالحديث إلى غرضٍ بعيد!!

اكتأب عبد الملك لما جاء على لســان عمرو فهو يعرف من دخيلته مــا يوحي بشــماتته وحقده وها هــو ذا ينتقض معاوية على لسان ابن الزبير ليجرح الخليفة من طرف خفي، وكأن بشراً لاحظ ما يدور بنفس الخليفة فعجل يقول:

«لقد سمعتُ ما قلته يا عمرو.. وأزيدك أن معاوية اجتمع به ليلين قناته الصليبة في أمر يزيد فأطرق مفكراً ولم يجب، فقال له معاوية: ما لي أراك مطرقاً إطراق الأفعوان في أصول الشجر، فرد في سرعة جاهدة أنا أناديك ولا أناجيك، أخوك من صدقك القول لا من كذبك الحديث ففكره في الأمر قبل أن تندم يا أمير المؤمنين».

فقال عبد الملك يعقب على صاحبيه: إن إنساناً أتعب معاوية وأحرجه، لا بــد أن يتعب عبد المـلـك ويضنيه!! ثم نظر إلى عمــرو ولم يتكلم فتقابلــت العينان لتفصحا عن سرٍ كظيم ولكن بشــراً يوجه الحديث إلى عبد الملك ويقول ملاطفاً.

لا عليك يا أمير المؤمنين.. فســحابة ابن الزبير ستنقشع عن قريب.. ولئن انتصر معاوية على عليّ في مكانته ورئاسته وســابقته فمثلك من يستطيع ســحق ابن الزبير بجهد يسير.. فنظر عبد الملك إلى أخيه ثم قال: لقد انتصر معاوية على عليّ

لأن ابن أبي طالب ـ شهد الله ـ صريح لا يمالئ ولا يخادع أما ابن الزبير فمراوغ خداع يناديك من اليمين ويثب عليك من الشمال وفي موقفه الأخير من العراق ما يعطي الدليل.

فتعجل بشر يسأل متجاهلاً وماذا أتاك عن موقفه بالعراق يا أمير المؤمنين؟

فزفر عبدالملك كمن ينفس قليلاً عن برح كظيم وقال: لقد لمس ابن الزبير موجة الندم على مصرع الحسين تغمر النفوس فشجع المختار الثقفي على قتال ابن زياد فقذف المختار بعدته وقوته وجالد بشيعته وذويه حتى أدرك النصر وقتل صاحبنا في عرينه ثم حمل رأسه إلى ابن الزبير بمكة واستتب له الأمر بالعراق فأصبح صاحب الكلمة الأولى وإذ ذاك تألب عليه ابن الزبير فأشاع عنه الأراجيف وملأ الجو حوله بالسموم!! حتى شكّ الناس في أمره وغايته!! ولم يلبث أثناء هذه البلبلة المضطربة أن بعث إليه بمصعب أخيه فأخذه على غرة وقتله مع أكثر من معه! ثم أعلن نفسه حاكماً على الكوفة وأصبح العراق والحجاز من الآن في حوزة الزبيريين!!

فقال بشر مغتاظاً: ولماذا سكت الخليفة عن الفريقين دون أن ينتهز هذه الوقائع فيسير بها إلى ما يرضيه!!

فعجل عبدالملك بقوله: هما عدوان لدودان فلنترك أحدهما يأكل الآخر فإذا افترسه وخرج من الحومة متعباً، توجهنا إليه بإذن الله! وهذا ما أفكر فيه!!

فقال عمرو بن سعيد في تخابث، حيا الله أمير المؤمنين ووفقه فيما يريد!! غير أني أحاذر أن يمتد الحبل لمصعب في الكوفة فتثبت دعائم أركانه هناك ويشد عضد أخيه بالحجاز فتصبح منهما على خطر عظيم، وإذا كان لي بعض الرأي لدى الخليفة فإني أرى المبادرة في السير إلى العراق لنجالد الزبير بين..

فنظر عبدالملك إلى عمرو كمن يستشف في نفسه مكيدة تنسج بخيوطها تحت أستار الظلام.. ثم طوى ما هجس في نفسه من شكٍّ في صاحبه وقال متجاهلاً:

إن الخوارج لن يسكتوا عن مصعب وقد جائتني الأنباء أن القتال بينهم سجال!! فلنترك هذا الظافر المنتصر يصطدم بعدوه الجديد.. ولتعلمن نبأه بعد حين.

فقال بشر مندهشاً: هل اختلف الخوارج مع ابن الزبير يا أمير المؤمنين؟ لقد كان يرمض أحشائي أن أجدهم على وفاق أكيد...

فقال عبدالملك في صدقٍ: يا بشر، أنت تعرف خبث ابن

الزبير وقد مالأ القوم في مبدأ أمره فأوهمهم أنه ينشد الحق الذي ينشدون.. واستمال فريقاً منهم بدعوى الصلاة والزكاة والخشية من الله.. ولكن فريقاً آخر قد اكتشف طويته ففضحوه بأسئلتهم المحرجة. وتكشفت الإجابة عن شقاق عنيد..

فأسرع بشر يقول متهللاً: لقد خفي عني ما جدّ من أمر الخوارج مع ابن الزبير فماذا عند أمير المؤمنين.

فاعتدل الخليفة في مجلسه ونظر إلى أخيه نظرة مخلصة وقال: جاءتني أنباء الأمس أنهم أحرجوه بالأسئلة الصريحة فسألوه عن رأيه في أبيه الزبير وفي عثمان وطلحة وعلي وعائشة، فأمهلهم بعض أيام وهم لا يرضون منه بغير تكفير الجميع... حتى إذا ضيّقوا عليه سبيل الانتظار، قال في خداعٍ ماكرٍ: «إن الله أمر في قتال الكافرين بأرأف مما تودون»، فقال لموسى وأخيه في فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: 44]، وقال ﷺ: «**لا تؤذوا الأحياء بسبّ الأموات**»، فنهى عن سب أبي جهل من أجل عكرمة ابنه، وأبو جهل عدو الله وعدو رسوله الأمين، وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذي سميتم فيه طلحة والزبير أن تقولوا أنبرأ من الظالمين، فإن كانا منهم دخلاً في غمار الناس، وإن لم يكونا منهم لم تحفظوني بسبب أبي، وهذا الذي دعوتم إليه أمر له ما بعده،

وليس يقنعكم إلا التصريح ولـن أرضى به فتفرق عنه القوم ناقمين، وحاربهم مصعب فباء منهم بشر مستطير!

فقال بشـر في فرح: الحمد لله، لم ينفع ابن الزبير احتياله الدقيق فارتطم بطرد مكين!! فقال عبدالملك، معقباً على أخيه وسأتهيأ بجند الشام، للخروج إليه في مأزقه فيقع بين أسدين كاسـرين وأغنم الفوز عن قريب.. ثم رفـع عينيه إلى عمرو، وقال في تطلع كنّ معنا يا ابن سعيد!! فأنت منا ونحن منك!!

فاضطـرب عمرو كمن أحسَّ سـهماً يتوجـه إليه، وقال في حيرةٍ: أنا فداء أمير المؤمنين.. وأدرك بشـر ما يجول في خاطريهما عن فراسـة صادقة!! فاستأذن من أخيه كي ينهض مع عمرو في جولة بالغوطة بعد أن تشعب الحديث.

وقام الرجلان فودعهما أمير المؤمنين.



توجه عبدالملك بعد أيامٍ بكتائبـه العديدة إلى العراق، ولـم يتجـاوز أربـاض عاصمتـه حتى جـاءه النبـأ بثورة عمرو بن سـعيد عليه في دمشـق، واغتصابه إمارة المؤمنين واحتلاله قصر الإمارة فَدَعا بشـراً أخاه، وقال له في أسـفٍ حائر: لقد قـرأتُ والله ما بنفـس هذا الآثـم المجترئ ليلة

اجتمعنا معاً بدار الخلافة، نتناقش في أمر ابن الزبير ولمحت في تخاوص عينيه دليل الغـدر والخيانة، وأفهمته حينئذٍ عن طريق التلميح ما وقع في نفسي منه!

فقال بشـر وقد أدركت ذلك يا أميـر المؤمنين، فعجلت بالانصراف معه إلى الغوطة وأخذت أتصرف معه في شـجون من القول لأستديم ولاءه فما انصاع إلى قبول، وإني أطمع أن يوفدني أمير المؤمنين الآن، فأعرض عليـه ـ خديعة واحتيالاً ـ ولاية العهد فأسـتميل خاطره ثم أرى ما يتكشف عنه عناده الغـدور فقال عبدالملك فـي انقباض متجهـم.. عليك به إن شئت فأبلغه ما تريد.

تابع الجيش الشامي سـيره إلى الكوفة يقوده عبدالملك مبدياً من البسـالة والصبر ما بعث في نفوس قومه كثيراً من التفاؤل والإقدام، وقد التزم سياسـة التواضع والرفق، فكان يسـأل كل جندي من رجال عن مأمله ومبتغاه وتبسـط في الحديث مع السـوقة حتى ضمن إخلاصهم ووفاءهم!! ولم يشـأ أن يشـنّ الحرب فجأة على مصعـب، فتتلاحم قوتان متكافئتان، إحداهما غريبة نائيـة لا تعرف منعرجات الطريق وملتمسات النجاة، والأخرى قريبة تملك من المعرفة والدرية ما تجوز به التفوق والانتصار، بل لجأ إلى الحيلة والدهاء..

فبعث بعيونه إلى أجناد مصعب يستوضحون أمره. ويكتشفون غوامضه، وأتوا إليه يعلنون ما شاهدوه في نفوس الجند من التذمر والغضب، فالأمير الزبيري كأخيه عبد الله شحيح بخيل لا يجود عليهم بغير ما يمسك الرمق من الكفاف الضئيل، وقد سئموا معاناة التقشف ومكابدة الحرمان!

فأخذ عبد الملك يفكر في الأمر تفكير المنتهز المباغت، واستعرض ما حمله من أوساق الذهب وأحمال الفضة، فرأى شيئاً كثيراً يبهر العيون ويجذب الأعناق، فبعث بكتبه إلى قادة كتائب مصعب وإخوانه!! وجعل يمنّي كل قائدٍ بالولاية ويغريه بالذهب، حتى انجذبت إليه النفوس عن رغبة واحتفال.. وجاءت إليه ردود القوم تعلن ولاءها الخالص وانضمامها إلى جيش الشام حين تأزف الساعة المنتظرة، ولم يشذ عن القواد غير إبراهيم بن الأشتر، وقد آثر الوفاء على الغدر ولم يأخذ مقلته بريق النضار أو تملْ بنفسه أحلام الإمارة.. فعرض كتاب عبد الملك على مصعب وأخبره خبر زملائه من القواد، ثم اقترح عليه أن يبيدهم بسيفه كيلا يفسدوا الجيش إذا دارت الرحى وحمي الوطيس، ولكن مصعباً خاف العاقبة وتريث في الأمر حتى يهتدي إلى السبيل، ولم تلبث أن فاجأته جيوش عبد الملك فتزعم الجند وأبدى من ضروب البسالة والحمية ما أكبره به أعداؤه ومبغضوه!! ولكن الخيانة تتطلع

برؤوســها، وشــعاع المال يجذب إليه قلــوب ذوي المطامع فخذله أعوانه في موقفه الحاســم ومأزقه الكريه!! ونظر فإذا القلة القليلة من ورائه والكثرة الكاثرة إلبٌ عليه مع خصومه.. فغامر بروحه ونال الشــهادة كريماً مهيباً لم تُخفض له رأس، أو يلحقه هوان.. ثم دخل عبدالملك الكوفة، وقد ضمّ العراق إلــى خلافته فبايعه أهلهــا طائعين راغبيــن فخاطبهم مبتهجاً بما نال، وأرهب ورغّب وبشّــر وأنذر، ثم رجع مسروراً إلى دمشق.. وقد أســند إلى الحجاج بن يوســف الثقفي أمر ابن الزبير بالحجاز آملاً أن تحين نهايته عن قريب!!

وطارت الأنباء إلى عبد الله بمكة فلاعه مصرع أخيه لوعة أليمــة، وأراد أن يعلن النبأ الفاجع إلى معشــره، فصعد إلى المنبــر ليقول بعد أن حمد الله: ألا إن خبــراً من العراق أتانا فأحزننا وأفرحنا، فأما الذي أحزننــا فإن لفراق الحميم لذعة يجدها حميمه ثــم يرعوي، ذوو الألباب إلــى الصبر وكريم الأجر، وأما الذي أفرحنا فلإن قتل مصعب له شــهادة، ولنا ذخيرة، أســلمه الطغام الصمّ الآذان أهل العراق وباعوه بأقل الأثمــان، فإن يقتلْ فقد قتــل أخوه وأبوه وابــن عمه وكانوا الخيار الصالحين!! أما والله لا نمــوت حتفاً كما يموت بنو مروان ولكن قمصاً بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف!! ثم نزل ليأخذ أهبته لقتال باسل، وكفاح مرير!

وفي يـوم عابـسٍ رهيبٍ تتدفـق جيـوش الحجاج من الشـام والعراق على جبل أبي قبيس بمكة، ثم تنصب على هضابه المجانيق لترمي الكعبة النيران المشتعلة فتهوي عليها بالصواعق والقذائـف، فإذا ارتجف الجنـود قليلاً لمهاجمة بيت الله صـرخ فيهم الحجاج متوعّداً وتقدم بنفسـه فواصل القذائف غير هياب! فتعطلت مشـاعر الحج، وأخذت كتائب الغزاة تُغير على المسالك والدروب فتقتل الشيوخ والأطفال والنسـاء!! وأقبل أهل مكة خائفين فزعين يطلبون الأمان من الطاغية، وقـد أرهقهم الجوع والعطـش واللهب بعد حصار ظالم عنيـد.. ويتحقق عبد الله من نهايته فيفـد إلى أُمه ذات النطاقين، ويقول في أسـفٍ دامعٍ: يا أماه خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق معي إلا اليسـير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا!!.

فتقول أسـماء في صرامة متماسـكة: أنتَ أعلـم يا بني بنفسـك فإني كنـتَ على حـق، فامض لـه فقد قتـل عليه أصحابك، ولا تمكّن من رقبتك ليلعـب بها غلمان بني أُمية وإن كنت إنمـا أردت الدنيا فبئس العبد أنـت!! فيصيح ابن الزبير: والله ما أردت غير رضوان الله ثم يخرج إلى القتال، وقد عزم على الموت ليصبح استشهاده الفاجع خاتمة المأساة!!

ويبحث الحجاج عن فارس نجديّ، يعرف عنه الوثب السريع ليحمل النبأ السار إلى عبد الملك بدمشق فيقابله الخليفة فيخبره الحديث، فيسُر عبد الملك ويثني على الحجاج ثناء المحب الفخور، ثم يسأل في تشفٍّ ناقم عن نهاية ابن الزبير فيُجيب الرسول: لقد أبدى مع ضعف عدته وقلة عدده جلداً صابراً وبأساً عظيماً، لقد ملك عليه الحجاج أبواب المسجد الحرام وحاصره به فأخذ ليلته يصلّي ويتجهد، ثم أغفى قليلاً حتى أذن الفجر، فنهض للصلاة وفرغ منها ليستعد للنزال، ويقول للبقية الضئيلة بمن معه: «يا آل الزبير لو طبتم لي نفساً عن نفوسكم كنا أهل بيت عظيم في العرب، أما بعد فلا يرعكم وقع السيوف، غضّوا الأبصار عن البارقة، ولا يلهينكم السؤال عني فلا يقولن أحدكم أين عبد الله ألا من كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول، احملوا على بركة الله يا له من نصر لو كان له رجال!».

فنظر عبد الملك إلى رسول الحجاج ـ وقد لمح تأثير حديثه في النفوس ـ وقال في عجب: مهلاً يا فتى نجد، فلقد كدت تجذب إلى ابن الزبير أعناق بني قومنا في الشام!! إني لأعرفه صبوراً جباراً، ولكنه رام التي لا يرومها من الناس إلا كل حر معمم، ثم تعلو وجهه ابتسامة المرتاح فيقبل عليه الملأ مهنئين.

❂❂❂



جبهةٌ عاليةٌ

دخل روح بن زنباع على أمير المؤمنين عبدالملك ابن مروان متهللاً ضاحكاً، وقال في ابتسام مرح: هينئاً لك يا أمير المؤمنين، فقد خذل الله على يديك عدوك اللئيم عمرو بن سعيد العاص وبلغك فيه ما تريد!

فقال جليس يتملق عبدالملك ويُجارِيه: ومن عمرو بن سعيد؟ لقد نصر الله أمير المؤمنين على آل الزبير بمكة، وشيعة بني هاشم بالعراق، وملحدة الخوارج بالجزيرة، وعاهل الروم بالمصيصة!! فمن يكون عمرو مع هؤلاء؟

فأطرق روح، وأخذ مكانه بين الجالسين، ولم يشأن أن يفوه بجديد!

ولكن عبدالملك يرفع رأسه في اتزان ويقول في وقار

هادئ: لقد كان مصرع عمرو بن سـعيد مأساة كشفت معادن الناس فصرت أشك في كثير ممن يداهنون بالحديث.

فنظر القـوم بعضهم إلى بعض حائريـن، وقد خاف كل سامع على نفسه، فربما عناه الخليفة بما يسوق من تعريض، وعبدالملك داهية حصيف يلفـظ الكلمة العابرة فتهدف إلى مرمى بعيد!!

ولكن روح بن زنباع يسـتجمع شـجاعته، ويطمئن إلى ثقة الخليفة به، فيقـول في ثبات حازم: أفصح يا مولاي عما تريد!! أي مأساة تكشفت لك في مصرع خائن عنيد؟

فاعتدل الخليفة في مجلسـه وتطلّع إليه القوم في حذر صامت، وقد أرهفـوا آذانهم إلى كل حـرف يقوله الخليفة، وانبرى عبدالملك يقول:

لقـد جاءني عمرو بن سـعيد حين اسـتدعيته في أربعة آلاف رجـل من أعوانه، معهم سـلاحهم الراعـب، ولديهم عدتهم الواقية، فأخـذوا يطوفون بقصري فـي ضجيجٍ مُزْبدٍ حتى خاف أخي عبدالعزيز عليّ، ورجاني أن أصرف الرجل إلى مصر، حذراً من العاقبة المتوقعـة، ولكني قامرت بقتله غدراً، ورميتُ برأسه إلى ذويه، تسيلُ دماً من فوق الأسوار، ثم طَرحتُ معها آلاف الدنانير والدراهم فتشاغل القوم بجمع

المال، وطار كل مأجور بما حمل، وبقيت رأس عمرو في الطريق!!

فردّ روح في دهاء: هؤلاء رعاعٌ أوغاد، لم يكونوا يضمرون الحب لعمرو، وقد استهواهم بالمال وحدَه، فحين أتي إليهم من غير طريقه حذلوه!! أما نحن يا أمير المؤمنين فنعيطك عن هوى خالص، ونبذل أرواحنا في سبيلك طائعين وقد جرَّبتها فيما سلف من المآزق، فعرفتَ من نكون؟ فلا تظن الناس جميعاً بمنزلة سواء!

وقال متملق آخر: إن الفرق بيننا وبين جنود عمرو، كالفرق بين عزة أمير المؤمنين وذلة غريمه! فكيف تقيس فريقاً بفريق!!

فابتسم الخليفة الداهية، ونظر إلى المتكلم نظرة معبرة، وكأنه يقول في تخابث: إخدع غيري فأنا أعرف طبائع العالمين!

ودخل الوليد بن عبدالملك فنهض الحاضرون إجلالاً لمقدمه، وانحنوا برؤوسهم إلى الأرض مبجلين معظمين، فصافحهم في عزة، ثم تقدّم في رزانة هادئة إلى أبيه الجالس على كرسيه يتألق وجهه بالابتسام، فمد يده إلى يده ثم لثمها ثلاث مرات في أدبٍ حريصٍ، والتفت إلى الملأ الواقفين

فدعاهم إلى الجلوس، شاكراً لهم استقبالهم الكريم... ثم أعطى الخليفة خطاباً قدم به سفير الروم منذ لحظات! واستأذن في الخروج فأذن له أبوه، والقوم صامتون يتصفحون وجه عبد الملك، إذ يتلو الرسالة ثم لا يفوهون بشيءٍ كما اعتادوا، فقد يكون الأمر من أسرار أمير المؤمنين.

ومضت لحظات فرغ فيها الخليفة من أمره، فطوى الرسالة، ووضعها في جيبه، والتفت إلى القوم يستمع إلى الحديث:

فقال قائل من الحاضرين إن في ملامح أميرنا الوليد مشابه من أبيه، ولا أرى الأُمة العربية قد أجمعت على شيء كما أجمعت على محبته وإجلاله، فبارك الله لك فيه يا سيدي العظيم..!!

فانتهز روح بن زنباع هذه المقدمة السارة، ووجه الحديث إلى ما يعرف فيه سرور عبد الملك فقال: وسيكون عهده الزاهر بعد أن يبلغ أمير المؤمنين ما يشتهي من عمره المديد، مجال سعادة للعرب ورفعة للمسلمين، فلْيجهر خليفة الله ببيعته في الأمصار دون انتظار، فإن ولاية العهد شاغرة منذ انتقل إلى رحمة الله سيدنا عبد العزيز شقيق أمير المؤمين.

فأطرق عبدالملك إطراقة المفكر، ثم قال في تحايل: كنت أودُّ أن أرحم الوليد من مآزق الحكم، ومرهقات السلطان، وأراكم تحاولون أن تخوضوا به فيما أكابد من لجج غواش، وعواصف قاصفات!!

فردَّ روح بن زنباع في صرامة: هُوَ لَها يا أمير المؤمنين، فالولد سرّ أبيه، وسينعم إن شاء الله بجلال الخلافة الرائع، ويهنأ بسعادة الاستقرار المكين.

فنظر عبدالملك في وجوه القوم، وقال في هدوء: جلالُ الخلافة الرائع، وسعادة الاستقرار المكين!!

... أواه.. ليستْ للخلافة سعادة يا قوم، هأنذا أحارب الأهوال في ميادينها المترامية، ولا أسّكن فتنة العراق حتى يشغب عليّ الخوارج، ولا أكاد أستأصل الزبيريين حتى ينعق عليَّ أباطرة الروم!! وكل يوم خبر فادح يستنزف الجهد، ويفري الصم الصلاب، فأين السعادة التي تظنون!!

قال قبيصة بن ذؤيب ـ وكان من الحاضرين: أنت أسَدٌ يا مولاي، والآساد للشدائد والأزمات!! والوليدُ مثلك، وسيحمي عرين أبيه!!

فابتسم عبدالملك ابتسامة أشرق بها محياه، ورأى القوم ما في وجهه من السرور، فأسهبوا في الثناء على الوليد،

وقضوا الوقت في سمرٍ لذيذٍ، حتى إذا حانت ساعة الانصراف أخذوا يستأذنون في الخروج، وينصرفون، مثنى وفرادى، وقد استبقى الخليفة روح بن زنباع لديه، فعلم مَن بقي من القوم أنه يريد الخلوة به، فنهضوا مسرعين!!

قال عبدالملك في همسٍ: لقد أطمأنّ قلبي يا روح إلى ما عرضت من أمر البيعة، ولكني أريد أن تكون طريق الوليد ممهدة معبدة، فلا يصطدم بالأشواك والصخور!

فأجاب روح في اهتمام: أيةُ صخور وأشواك تظن؟ إن جميع أرجاء الخلافة في حوزتك، ولئن طرفت عينٌ واحدة تريد الانتقاض، فلا بد أن ينطفئ نورها دون أن تبصر ما تريد!!

فقال الخليفة في تعقلٍ: لا نزاع في أن الدولة الآن تحت يدي، وجميع من بها في قبضتي أتجه بهم حيث أريد، ولكن السماء تكون صافية زرقاء ثم ينتشر الغمام فجأة فتجلجل الرعود وتلمع البروق ثم تنهمر السيول... ولا بد من عمل حاسم تجمع به الناس قلوباً وضمائر، لا رؤوساً وألسنةً على طاعة الوليد! ثم سكت الخليفة... وأطرق روح إلى الأرض يفكر فيما يسمع، ويبحث عن رأي مصيب، ولكن عبدالملك يقطع عليه تفكيره حين يسأله قائلاً: أتعرف سعيد بن المسيب يا بن زنباع؟

فيتنبهَّه روح ويجيب مسرعاً: ومَن لا يعرف فقيه المدينة، ووارث علم الصحابة، وسيد التابعين!! فيقول عبدالملك: كيف علمُك بحب الناس له وتقديرهم إياه؟

فيرد روح في حماسة: لا أعرف بين العرب إنساناً يملك قلوب بني الإسلام كما يملكها سعيد، ووالله لقد شهدت من طاعة المسلمين له، وإقبالهم عليه، ما لو أمر أحدهم بأن يرقى إلى قمة جبل، ثم يرمي بنفسه إلى السفح لتهالك الناس على ذلك، وكأنهم يسرعون إلى جنات ناضرة تجري من تحتها الأنهار!!

فنظر عبدالملك إلى جليسه ثم قال: هذا هو السلطان يا روح، إنه سلطان مشاعر وقلوب، لا سلطان رماح وسيوف!! فمن لي بمثل ذلك للوليد؟... لقد فكرتُ ـ وهذا سرّ بيني وبينك ـ أن أخطب إلى الوليد ابنة سعيد، فإذا أصبح زوجها المختار، وانتقلت إلى بيت الخلافة بدمشق، وشاع بين العرب أن الوليد قد ضمن حبّ سعيد، فستخضع له القلوب الأبية، وتتسع له الصدور المنقبضة، ويصبح ـ عن حق ـ أمير الدولة وسيد المسلمين.

فقال روح ـ وقد استشف بنظرته سريرة أمير المؤمنين، ورأى الأجد أن يطيعه ويزكّي رأيه ـ: وما يمنعك من ذلك يا مولاي؟ وهذه أجمل بشارة يمكن أن تزف إلى سعيد!!

فقـال عبد الملك مسـتفهماً في دهاء: من يزفهـا إليه يا صاح؟ فأسـرع روح يجيب: إذا أحرزتُ ثقة أمير المؤمنين، فإني أعجل بالرحيل إلى المدينة فأقوم بما تريد!

فهمس عبد الملك يسـرّ إلى صاحبه ـ وليـس معهما أحد، ولكن ليعطيه صورة قوية عن حذره وحيطته ـ سرْ على بركة الله، ولا تبطئ في المدينة لغير حاجة، فأنا في عجلة تتطلب حضورك السريع، ثم وقف الخليفة ناهضاً... فأدرك روح أن موعد انصرافه قد حان، فتلمس طريقه إلى الباب في تأدبٍ حريص.



شـاهد وجوه المدينة روح بن زنباع يسـأل عن مجلس سعيد بن المسيب، فيعلم أنه بمسجد رسول الله، فيسرع إلى لقائه في لهفة، ويراه ناهضـاً يتلو القرآن في صلاته بين يدي ربه، فينتظر متمهلاً حتى يفرغ من شـأنه، ثم يتقدم إلى يده فيلثمها متفائلاً متبركاً، ويقول في أدب خاشع:

أنا رسول أمير المؤمنين؟

فيرد سعيد في تؤدة: وماذا يريد أمير المؤمنين؟

فيبتسم روح إبتسامة ذات دلالة سـارة ثم يقول: جئتك منه بخير جزيل.

فيردَّ سعيد دون أن يمهله: الخير من الله وحده لا من مخلوق ضعيف!!

فيضطرب روح لما يسمع ثم يتدارك ثباته فيقول: إن أمير المؤمنين أيّده الله يقدِّر منزلتك العالية في المسلمين، وقد رأى أن تكون ابنتك الطاهرة زوجة صالحة لابنه وولي عهده الوليد، وقد بعثني بشيراً إليك فبأي شيء تجيب؟

فيقول سعيد ـ وهو يهزُّ رأسه ـ ما شاء الله!! عبدالملك يريد أن يصهر إليَّ!! انتظر يا بني إلى الغد، حتى آتي الفتاة فأسمع منها الرأي فهي صاحبته الأولى دون شريك!! فيقول روح في أدب: ومتى أسعد بلقائك الكريم؟

فيرد سعيد في ثقة: غداً في مثل هذا الوقت بمسجد رسول الله!!

فيستأذن روح مترقباً ما يأتي به الصباح القريب.

وخلا سعيد إلى تفكيره فأخذ يتأمل فيما حزبه من الطارئ الجديد، ثم قال هامساً وكأنه يجرد من نفسه رجلاً يبادله الحديث: إن عبدالملك يريد أن يتخذ مني ستاراً يحجب عن الناس جبروته البغيض، ويُسكت الألسنة إذا خاضت في شأن الوليد، وإن هذه الأُسرة من بني أُمية ما انفكت ترمي الناس بكل داهية ينتهز الفرصة، فيبني مجده الخاص على نثار

الجماجم المتطايرة، والأشلاء المبعثرة، والدماء المراقة، ولن يكون الوليد أعدل من أبيه، كما لم يكن عبد الملك أعد من مروان!! وقد ابتلانا الله به والياً طاغياً في المدينة، ثم خليفة جباراً في دمشق، أفيكون ابن المسيب ستاراً يخفي المظالم، ولساناً يدعو إلى البغي والشقاق: ألا حاب سعيد وخابت بنت سعيد إذا كانا مطيتين سريعتين إلى طريق الضلال، لن أبلغ بالرجل ما يريد مهما تخابث واحتال...

ونظر سعيد فيمن حوله فرأى تلميذه الفقير الواهن عبد الله بن وداعة يتقدم إليه، فسأله أين كنت يا عبد الله؟ لقد تلمستك من ثلاثة أيام، فلم أعرف عنك شيئاً يا صاح؟

فقال التلميذ في انكسار: لقد ماتت زوجتي منذ يومين بعد مرضٍ طويل.

فردَّ سعيد: إنّا لله وإنا إليه راجعون! ألا أعلمتنا بمرضها فنعودها، أو بموتها فنشهد جنازتها!!

فقال عبد الله: لقد استحييت أن أتعبك يا سيدي الكريم.

فنظر إليه سعيد متسائلاً: ألك رغبة في الاقتران بغيرها يا عبد الله؟

فأجاب في ذلةٍ ضارعة: يرحمك الله يا سيدي، من يزوّجني وأنا طالب علم فقير لا أملك غير قوت اليوم!

فأشرق وجه سعيد وقال: أنا أزوّجك ابنتي الليلة، وأكون مرتاح النفس إذ أزفها إلى طالب علم يحفظ القرآن، ويروي حديث رسول الله ويتجنب المحارم ويحذر الشبهات!

فبهت ابن وداعة ولم يجب!! فقال سعيد: أترفضها يا عبد الله؟

فأكبّ الطالب على قدميه يلثمهما في ذلة ويقول: عفوك يا سيد أين أنا من مقامك الجليل؟

فقال سعيد في حزم: قم فادعُ نفراً من الأنصار، فأشهدهم على الزواج، فتلكأ ابن وداعة مستحيياً متحيراً، ورأى سعيد ذلك في وجهه، فصفق بيديه، فحضر رهط من تلاميذه فأشهدهم على ما كان، وأصبحت الفتاة زوجة طالب العلم الفقير، وفي المساء صحبها والدها إلى منزل الزوج، ومعها الخادم والدراهم والدقيق وبات ليلته مسروراً، وقد ردّ عمليّاً على خطبة أمير المؤمنين.



أشرق الصباح، وقدم روح بن زنباع إلى المسجد، فسمع الناس يتحدثون عن زواج ابنة سعيد، فأخذ يضرب كفاً على كفٍ، ولم يشأ أن يقابل الفقيه الورع بعدما صنع، فقد انتهى

الأمر على غير ما يريد... فركب راحلته واستأنف المسير إلى دمشق، وفي نفسه ثورة عارمة على هذا المترفع المتشامخ الذي آثر طالباً فقيراً قميشـاً بما رغب فيه وليُّ العهد، وسعى إلى تحقيقـه أمير المؤمنين... وكان لقاء شـاحبٌ مبتئسٌ في قصر الخلافة بين الرسول والمرسـل، فقد ألم عبدالملك بما كان، وعضّ على يديه غيظاً أن عرّض نفسـه لإهانة قاسية، لم يكن يتوقعها من أحد، وطلب إلى زوح أن يكتم الأمر ما اسـتطاع، فلا تقف عليه أُذُنٌ في دمشق، ثم قال في مرارة كظيمة: وهبني ضمنت لسان روح! فمن يضمن لي لسان سعيد؟!

ودارت الأيـام، وأميـر المؤمنين يفكر تكفيـراً دائباً في الدعوة السـريعة إلـى مبايعـة الوليد، في جميـع الأمصار الإسـلامية بالعهد من بعده، وقد بادر إلى تنفيذ ذلك متخذاً وسـائله السـريعة، فتمت البيعة في جميع العواصم العربية دون المدينة... فقد تريّث عبدالملك أن يفاجئ حرم رسول الله بما يريد! إذ أن سعيداً سيعلن رأيه بما لا يحب، فيجذب إليه سواد الناس، وتكون فتنة عارمة يتصدع بها ثبات الوليد! وقد عقـد الخليفة لذلك مجلسـاً من خاصته وذوي سـره! وطرح الموضوع على بساط المناقشة ليصل إلى حل مفيد!! قال قائل من الحاضرين: وهب أن سعيداً تخلف عن البيعة يا أمير المؤمنين، فماذا يصنع فرداً واحد بين الملايين!!

فردّ عبد الملك: لو تخلف عن البيعة مئات من رجال السياسة وذوي العصبية، ما أهمني ذلك في شيء!! إذ أن جميع الناس سيدركون أنه خلاف شخصي لا صلة له بالشريعة الإسلامية!! ولكن تخلّف سعيد وهو رأس العلماء في عصره مدعاة إلى لجاج كثير.

فقال قائل ثان: لقد بايع عشرات الفقهاء في كل حاضرة من حواضر الإسلام، فإذا اتفق هؤلاء جميعاً ـ وهم حماة الشريعة ودعاة الملة ـ على البيعة للوليد، أفيوثر علينا تخلف سعيد!!

فأجاب أمير المؤمنين في صرامة حاسمة: يا قوم، سعيد عالم مدينة رسول الله، وإمام أهل الملة بالحجاز، وأثره الديني والروحي لا يتعلق به متعلق، فأتركوا بربكم هذا القياس!!

فقال قائل ثالث: لنأخذ رأيه أولاً على انفراد فعساه يلين!!

فقال عبدالملك في أسف: هيهات... لقد حاولت ذلك مرات، فوقفت على ما لا أتحمل! وتلك ثغرة أحاذر أن تتسع ذات الشمال وذات اليمين!

فأطرق القوم ساهمين، ولاحظ أمير المؤمنين ما يرين عليهم من القنوط، فقال في حدة: لا بد من الحزم

السريع، لن أدعوه إلى المبايعة كغيره من الناس، بل أشير عليه بالسكوت إذا تلا القارئ كتاب البيعة في المسجد الشريف، فإذا لم يشأ ذلك، فليلتزم منزله يومئذ فلا يفد إلى المسجد حتى ينتهي الأمر فإذا أصر على ملازمة المسجد، فلنتقل من مكانه المعتاد إلى ناحية أخرى، فيأتي الرسول إليه فلا يراه وفي ذلك كله تهوين عليه وتجنب للخلاف!!

فقال قائل مريب: وإذا ركب رأسه وأراد التنديد فماذا تصنعون؟

فصاح الخليفة مغتاظاً: آخر الدواء الكي، ولا بد مما سيكون.

فأمن القوم على ذلك، وانفرط العقد إذ بادروا بالخروج بعد قرار حاسم في أمر سعيد.



وجاءت رسل البيعة إلى يثرب، فتقدّم هشام بن إسماعيل والي المدينة إلى سعيد يعرض عليه ما اقترحه أمير المؤمنين في شأنه، وقال له في استعطاف: لقد قبل الخليفة أن يقرأ الكتاب بالمسجد فلا تتكلم بلا أو نعم!

فقال سعيد محتداً: سيقول الناس بايع ابن المسيب إذ صمتَّ!!

فقال هشام: لقد قبل الخليفة أن تجلس في بيتك حينئذ فلا تشارك المجتمعين بالمسجد.

فأجاب سعيد في استخفاف: ما أنا بفاعل، كيف أسمع المؤذن يقول: حي على الصلاة، ثم لا أبادر بالذهاب!

فكتم هشام غيظه المنفعل في حدة ثم قال: لقد قبل الخليفة أن تنتقل من مجلسك إلى غيره، فإذا جاء الرسول فلم يجدك أمسك عنك!!

فقال سعيد في سخرية: ما أنا بفاعل، أخوفاً من مخلوق احتال على التهاون والإغضاء!! فانصرف الوالي يائساً يفكر في الخطوة الأخيرة وإنها لذات عقابيل..! وكان ما لا بد أن يكون.. فقد حانت الساعة الحاسمة، وارتفع الصوت المؤمن بالمعارضة، فسيق الشيخ الواهن إلى العذاب، وضُرب بالسياط ضرباً مبرحاً، وصب الماء على جسده النحيل حتى أُغمي عليه، ثم حبسوه!

وطارت الأنباء إلى مجلس عبدالملك وقد تحلّق حوله ذوو مودته فتعجب تعجباً شديداً من صلابة سعيد وعناده، وتزلف إليه مستمع مداهن، فسأل أمير المؤمنين في تعجب:

لماذا لم يبايعْ هذا الشيخ الخرف سيدنا الوليد، وليس بدمشق غيره من أولى النبالة والورع والجهاد..

فأجاب مستمع آخر ينافس سابقه في الملق الرخيص: إن سعيداً يرفض البيعة لسيدنا الوليد، وأمير المؤمنين على قيد الحياة، ولو كانت البيعة بعد أمدٍ مديدٍ إن شاء الله لأجاب ثم أجاب..

فنظر عبدالملك إلى القوم وقال في أسف: علام نخدع أنفسنا في سعيد؟ إن الرجل يعتقد أن خلافة بني أمية ذات الإرث المتتابع لا تتجه وجهة الإسلام!! وهو على اعتقاده حريص، ففيم الجدال؟

وأحسَّ الرجلان بالخجل فانصرفا... وخرج القوم وراءهما متتابعين.

⚙ ⚙ ⚙



جبارٌ يتصاغر

كان الوليد بن عبدالملك مبتهجاً في مجلسه لسعادة أصابته في أمسه ويومه، فأخذ يتفكه مع جلسائه في مرح سافر، والبشر يكسو الوجوه فتنمُّ عن ألقٍ وضيءٍ، ثم خطر ذكر الحجاج بن يوسف الثقفي فساد الصمت فجأة، وغمرت النفوس كآبة تعجّب لها الوليد، فسأل أصحابه متضاحكاً: كيف تبدلت بكم الحال عند ذكر الحجاج!! فقال والي المدينة عمر بن عبدالعزيز، وكان في الحاضرين - يا أمير المؤمنين، لا يخطر الحجاج في سرور إلا أفسده، ولو شاهدت وجوه الناس وما يصبغها من العبوس إذا تداولوا سيرته خارج قصرك، لوقفت على شرٍ أليم..

فابتسم الوليد ابتسامة معبرة وقال: أعلم أن سياستكما مختلفتان، وكم كتب إليّ الحجاج يشكوك.

فنظـر عمر بن عبدالعزيز متعجباً وقال: يا سـبحان الله، أوَيشـكوني الحجاج إلى أمير المؤمنين، فأجاب الخليفة في ابتسام: يقول أنك أفسـدت عليه ملأه في العراق، فما يشغب شـاغب بالكوفة أو البصرة، إلا رحل إليك هارباً منه فآويته وحميته، وجعلت حرم رسول الله ملجأ للطرداء والمذنبين!!

فقال عمر معقباً: أصدقـك الحديث يا أمير المؤمنين، إذ أعلن إليك أن إغضاب الحجـاج قربة عظيمة أتزلف بها إلى السماء!! فضحك الوليد ضحكة عالية وقال في تفكه: أوَ بلغَ بك امتهانه إلى هذا القدر، إنّ والـدي رحمه الله أوصاني به خير وصية، وقال أنه جُنة بني مروان!

فردّ عمر متعجباً: لا حول ولا قـوة إلا بالله، أيكون هذا الطاغية السـفاح جنة بني مروان، وليس في يده غير العراق، فهل كان جُنتهم أيضاً في الشـام والحجـاز ومصر وأفريقية، وخراسان!!

فنظـر الوليد إلى جلسـائه وسـأل ماذا تـرون؟ فصاح صائحهم في مداهنة: القول ما قال أميـر المؤمنين! فتنحنح الوليد قليلاً ثم قال: إن أميـر المؤمنين عبدالملك رحمه الله حين أعياه أمر العراق، جمعَ أنصـاره وخلصاءه، ثم خطبهم بقوله: «أيها النـاس إن العراق كدر ماؤهـا، وكثر غوغاؤها،

واملولح عذبهـا، وعظم خطبها، فهل من ممهد لها بسيفٍ قاطعٍ، وذهنٍ جامعٍ، وقلبٍ ذكيٍ، وأنفٍ حميٍ، فسكت القوم، ولم يتقدم غير الحجاج، فجمع الله به الشمل ووحّد الكلمة، وأكد وفاده الجم لأمير المؤمنين...».

فقال عمر معترضاً: لو كان الحجاج ذا وفاء كما يظن أمير المؤمنين لظهر ولاؤه لسيده وولي نعمته روح بن زنباع، وزير أمير المؤمنين عبد الملك رَحِمَهُ اللَّهُ.

فسأله الخليفة في دهشة: أوخان الحجاج روح بن زنباع وقد قدّمه وزكّاه!؟

فأجابه عمر: لقد اختاره روح أميراً للعسكر، فأصبح رجل الجند المطاع، وقائدَ الكتيبة المرهوب، وقد مرّ ليلة بعسكر روح وهم يتناولون الطعام فأجبرهم على الرحيل فامتنعوا حتى يأكلوا ما بأيديهم، فأحرق عليهم خيامهم بالنار، وتركهم شُرَّداً أباديد!! وبلغ ذلك روحاً، فشكاه إلى عبد الملك فما أنصفه وأقرّ صنع الحجاج.

فردَّ الخليفة يقول: لولا أن الحجاج كان على حق، ما أيده أمير المؤمنين رحمه الله فانقطع الحديث بعمر، ولم يدر كيف يجيب!! ثم أخذ الوليد يتأمل وجوه الحاضرين وسأل مداعباً: ما تقولون أنتم في الحجاج؟ احكموا بيني وبين عمر بن عبد العزيز.

فقال مستمع حصيف: إن رأي أمير المؤمنين أيده الله صائب سديد، فقد سكن الله بالحجاج ما تفاقم من فتن، وأمن به ما اضطرب من أمن، ولكنه لجوع مفيد، يسرف في الدماء لغير حاجة، وأحرى به أن يجانب الشطط، فلا يكون سفاحاً من الباطشين.

فقال الوليد: وهل يقتل الحجاج ضحاياه دون ذنب يقترفون، محال أن يكون ذلك من أمير أريب!

فرد المتكلم في لباقة: كل الذنوب يا أمير المؤمنين لا تستوجب القتل، وإراقة الدماء فمنها ما يقابل بالملامة، ومنها ما يكافأ بالسجن، ومنها ما يجازى بالضرب أو يلقى التهاون والإغضاء! ولكن الحجاج في أكثر أموره بطاش سفاح.

فقال الوليد في اهتمامٍ: لك أن تضرب الشواهد والأمثال!

فأجاب الرجل في ثبات: لقد دخل عليه بعد معركة الجماجم رجل من بني جثعم، جاوز الثمانين، وكان قد اعتزل الحرب فلم ينضم إلى ابن الأشعث أو سواه، واعترف بذلك للحجاج! وقد رأى الطاغية في وهن جمسه، وارتعاش مفاصله، وتخاذل أعضائه من الكبر والشيخوخة ما يباعده عن أعمال الحروب والنضال... ولكنه أصرَّ على قتله دون

ذنب جناه! فأسرع عمر بن عبدالعزيز يقول: أمّا وقد ذكرت دير الجماجم، فلديّ من وقائعه ما يشيب الولدان!

فابتسم الوليد، وقال لعمر: انتظر قليلاً أنت يا بن العم، فالرجلُ شاهدٌ يدلي بشهادته وأنت مدعّ تطالب بالقصاص!! فابتسم القوم في مرحٍ ثم استأنف الرجل يقول:

لقد تقدّم إليه غلام صغير لم يبلغ الثالثة عشرة من عمره، وبكى في لهفةٍ وخوفٍ، وجعل يقول: أنا غلام صغير، سرت مع أمي وأبي ولا أعلم أين يقصدان، وظهر من ضعفه وسنه ما ينطق ببراءته، ولكنه كان من ضحاياه.. فسأل الوليد في تطلع أوقتل الحجاج جميع أسراه يوم الجماجم ولم يعفُ عن أحدٍ؟ فأجاب الرجل في حزمٍ: قتل الكثير وعفا عن النزر اليسير، وقد شاهدت بنفسي نادرة طريفة أقولها لو أذن مولاي!

فقال الوليد مبتسماً: هات نادرتك لعلها تروح عنا بعض الشيء!

فردَّ عمر متضاحكاً: أوَفي حديث الحجاج ترويح يا أمير المؤمنين...

فقهقه المجلس في أدبٍ يفرضه وجود أمير المؤمنين.. ونظر الوليد إلى الرجل وقال عجّلْ بالنادرة لتدهش عمر بن عبدالعزيز.

فقــال الرجل وعينه لا تتحول عــن الوليد: كان الحجاج قد اشــترط على متّهم أن يقرُّ على نفسه بالكفر، فإذا اعترف بذلك نظر في إطلاقــه أو عقابه، وقد تقــدم إليه رجل ماكر يود الحجاج أن يعجل بحتفه، فقال يقويه بالإنكار: إني أرى رجلاً ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر والمروق.

فابتســم المتهم في دهاء وقال: أوَخَادِعي أنتَ عن نفسي أيها الأميــر، أنا أكْفَرُ أهــل الأرض، وأكْفَر مــن فرعون ذي الأوتاد!

فضحك الحجاج حتى بدت نواجذه، واضطر إلى إطلاق الداهــي المراوغ! فابتســم الوليد وتغدر القــوم وأخذوا في شجون من الحديث!! على أن عمر بن عبدالعزيز ظله صامتاً لا ينبس!! وقد أطرق برأســه إلى الأرض كمــن يكابد أزمة داخلية تأخذ عليه شعاب تفكيره، فاتجه إليه الوليد في حدبٍ بالغٍ وسأل: ماذا ترى أيها الصديق؟

فانتبه عمر لســؤال الخليفة، وأدركته البديهــة المتيقظة فقــال: أرى إن رأي أمير المؤمنين، أنّ يكتــب إلى كلّ وال من عماله ألا يبادر بقتل إنســان ما، ممن يشغبون عليه حتى يســأذن أمير المؤمنين بدمشــق، ذاكراً ما يدعو إلى ســفك الدماء، كان في ذلك عصمة للأرواح، وصيانة للمسلمين.

فائتلــق وجه الوليــد، ومدَّ يــده إلى عمــر مصافحاً في بشاشة، وقال لجلسائه: رأيٌ سديد والله، وسأعجل بتنفيذه من الآن وإني لمســتفتح بالحجاج دون انتظار. ففرح الحاضرون فرحاً أضاءت به الوجوه، ولمعت الأســرة، وأخذوا يمدحون الوليد ويحبذون ســيرته الهادية، وعاد المجلس إلى ما بدئ به من المســرة والانتعاش حتى إذا قضوا حظاً مما يسمرون، تفرقوا مستأذنين.



كان الحجاج جالســاً في ملأ من أصحابه بالعراق، فأتاه خطــاب أمير المؤمنين يأمره أن يســتأذن فــي كل دمٍ يراق، فسبغت وجهه مســحة كئيبة من الأسف والغيظ، وأخذ يفكر في الأمر متأملاً ما عســى أن يكون قــد أوحى به مما خالط نفس الوليد، وجعل يقلب الرأي على شــتى وجوهه محللاً معللاً... ثم هداه دهــاؤه إلى حيلة بارعة يقنــع بها الوليد، فتكون آية ناطقة على عدالج تصرفه وسلامة مأتاه.

لقد بعــث إلى خارجي متشــدد ممن يعــده فيهم غلظة القول، وفظاظة الطبــع، وتهور النقاش، فقرّبه من مجلســه، وأخذ يطرى ـ لمأرب في نفســه ـ صراحة الخارجي، ونظافة

اعتقاده، على غير ما يتوقع الرجل، ثم سـأله في تخابث: ما تقول في معاوية!؟ فقال الخارجي فـي صراحة جريئة: لئيم ماكر غدور، اسـتحل الخلافة من غير طريقها، واستباح من المحارم مـا أمر الله أن يصـان، فعليه لعنة الديـان إلى يوم الدين، فلم يظهر الحجاج اكتراثاً لما سـمع، وتابع سـؤاله يقول: وما تقول في عبدالملك بن مروان؟

فقال الخارجي: شـريك معاوية في الغـدر والفجور، إن لم يكن زاد عليه بما جلب من الشرور وروع الآمنين، فعليه لعنة الديّان إلى يوم الدين.. فتباله الحجاج، وابتسم يقول في اسـتخفاف: وما رأيك في الخليفة الوليد؟ فصاح الخارجي لئيم بن لئيم، وغادر بن غادر، وسفاح بن سـفاح! فعليه لعنة الله إلى يوم الدين!

فأطرق الحجاج برهة كمن يدبّر في نفسـه أمراً ثم قال: إنك لصريح جريء وقد وثقـت برجولتك العالية، واعتقادك الغيور، أفرأيت إن أرسلتك إلى دمشق ثم قابلت الخليفة في قصره أتجابهه بهذا الحديث..

فشـمخ الخارجي بأنفه وقال: ومَن يكـونُ الوليد؟ إنني لا أخشـى غير الله رب العالمين، فابتسـم الحجاج وقال في تؤدة: سترحل إليه عن قريب، ثم خلا إلى نفسه وأحضر ورقة يكتب فيها إلى أمير المؤمنين:

«أما بعد.. فقد وصلني خطابك تأمرني أن أستأذنك في كل دمٍ يراق، وهذا خارجي لئيم ثائر، جَلَبَ الشرور، وأثار الموبقَات، وله أنصار وأتباع، فإن رأيتَ أن تسأله عن اعقاده في معاوية، وعبد الملك وفي شخصك الكريم فسترى ما يوجب القتل السريع، ولقد كدتُ والله أن أُسْقي الأرض بدمه لولا ما حرصت عليه من طاعتك ووجوب استئذانك في إهداره والسلام عليك ورحمة الله»!!

ثم سار الركب من العراق يضم الخارجي وحراسه ورسالة الحجاج إلى الخليفة، فما أن أتى قصر الخلافة حتى مثل بين يديّ الوليد، وقرأ الرسالة متعجلاً، ثم سأل الخارجي عن رأيه في الخلفاء الثلاثة فسمع ما سمع الحجاج، ورأى من تشامخ المسؤول وغطرسته ما استشاط به غضبه، فأمر جلاده فأزال رأسه عن جسده، ثم كتب إلى الحجاج يقول: «أنتَ في بؤرة فاسدة مفسدة فاحمل سيفك، ولا تراجعني في أحد والسلام» ثم قام مغضباً، فاتجه إلى زوجته أم البنين شقية عمر بن عبد العزيز، فحدثها بما كان من اقتراح أخيها وتصرف الحجاج، وأخذ يؤيد الطاغية في إرهابه وبطشه، وينحى بالملائمة على عمر بن عبد العزيز، ولم يدر أن أم البنين ستغضب لشقيقها العادل الرحيم، فهجنت إرهاب الحجاج وسفّهته، وفاجأت زوجها بقوارع اللوم، وقوارع التأنيب -



وكان معها حليماً عطوفاً ـ فأرسل يستدعي أخاها من منزله على عجل، ليرأب الصدع، ويعيد الصفاء من جديد..

فسرعان ما حضر عمر، فألمّ بما كان من أمر الخارجي ثم ما جدّ من خلاف الزوجين، ورأى من تشعّب الخلاف، وتطاول الجدل، ما حمله على الملاينة والتلطف، فسأله الوليد في ضيق ـ وقد نظر إلى زوجته في غضبٍ كظيم ـ ما كنت تصنع يا عمر بالخارجي إذا استمعت إلى ما استمعت إليه من ردّه القبيح؟

فقال عمر في تصميم: لم أكن لأستبيح قتله يا أمير المؤمنين!

فردَّ الوليد في تهكم ثائر: أفكنت تميل إلى الصفح، فيتجرأ الناس وتعيد ماساة عثمان رضي الله عنه من جديد!!

فرد عمر في لباقة: كلا يا أمير المؤمنين، ولكني كنت أراجعه وأناقشه حتى يتوب، فإذا لم يرجع سجنته في محبسي ليفكر من جديد!!

فاحمر وجه الوليد، وصاح في غيظٍ: ذلك ما لا أطيق، ثم طرق الباب طارق...

فنهضت أم البنين إلى خلوتها الخاصة، وكانت تجلس دائماً إلى ستر قريب من مجلس الوليد فتسمع ما يدور

به، دون أن يعلم أحد عنها شيئاً غير أمير المؤمنين.. وإذ ذاك دخل سلميان بن عبدالملك شقيق أمير المؤمنين، وابن عم عمر بن عبدالعزيز، فأدرك الخليفة أن أخاه ما قدم عليه في مثل هذه الساعة إلا لأمر شديد.. فصرف ما بنفسه من الغضب، وانبسطت أساريره، فحيا الوافد القريب تحية كريمة، ثم سأله في لطفٍ مهذبٍ: ألك من مطلب يا سليمان؟ فتلعثم سليمان قليلاً ثم قال في اضطراب لا تستبين به الكلمات دون عسر شديد: إن الحجاج جزاه الله قد أرهق يزيد بن الملهب بما لا يستطيع، وإني أستشفع إليك في يزيد، فقد نزل داري، ورآني أهلاً للشفاعة فيه، وإذا كان الحجاج يطالبه بكثير المال أو قليه، فعليّ أن أدفع ما يريد..!

فعبس وجه الخليفة فجأة وقال في ثورة: لقد كتب إلى الحجاج يكبر زلة يزيد، ويدعو إلى حتفه، وما أنا بمستطيع أن أفسد عليه خطته في الزجر والتأديب!

فردّ سليمان في أدبٍ يكسوه الحياء والهيبة، أنا لا أستشفع إليك في عدوّ يا أمير المؤمنين، فيزيد وأبوه وأخوه من نصرائنا المخلصين، وقد جاهدوا في صيانة ملك بني مروان بما لم يقم به الحجاج، وإني لأستحلفك بالله إلا نظرت إلى يزيد من جديد!!

فردّ الوليد متجهماً.. دعنا منه!! قد نفذ أمر الحجاج دون نقاش!! وهمّ بالوقوف في غضبٍ ظاهرٍ. فخجل سليمان خجلاً جعل عرقه يتصبب فيغسل وجهه، ويبل ثيابه، ثم انسحب متألماً ملتاعاً فتبعه عمر بن عبد العزيز.

وساد القصر وجوم كئيب، فأم البنين قد سمعت ما دار من الحديث، فقابلت زوجها غاضبة صاخبة، ثم انفجر بركانها فجأة فصاحت في تهكم: يا لحظّ الحجاج من رجل سعيد!! لقد غضبتَ في سبيله أخاك وزوجتك وابن عمك فمن ستستبقيه؟

فقال الوليد في غيظٍ: أيّنا غضب الآخر؟ أنتم تتدخلون في أمور السلطان فإذا عالجتُ الشيء بالحزم تكالبتُم عليّ، وكأنكم أعداء ألداء تثيرون من حولي الفتن الصاخبة فلا أستريح!!

فأجابت أم البنين في تهكم ساخر: كلّنا عدوك يا أمير المؤمنين، أما الحجاج وحدَه فحبيبك الفريد!! ثم انخرطت في بكاءٍ مرير!!

ضاق الخليفة بأمره، وودّ لو استطاع أن يبدّد عبوس القصر واكتئابه، فجعل يفكر فيما يزيل الغضب والنفور، وما كاد يستريح قليلاً من خواطره المتشابكة، حتى سمع طارقاً

يــدقّ الباب من جديــد!! فخرج إلى لقائه بنفســه مؤملاً أن يجد موضوعاً آخر ينســيه ويلهيه! ولكنه شاهد منظراً عجباً! فقد رأى يزيد بن المهلــب مكبلاً بالأغــلال ومعه في قيده أيوب بن شقيقه ســليمان، وفي أيديهما رسالة صغيرة، خطها سليمان بقلمه، وفيها يقول:

«أمــا بعــد فإنــي وجهــت إليــك يــا أميــر المؤمنين بيزيد بن المهلب وابن أخيك أيوب بن سليمان ولقد هممتُ أن أكون ثالثهما، فإن هممــتَ بقتل يزيد فبالله عليك أن تهدأ بأيوب ابني من قبله ثم اجعل يزيد ثانياً، واجعلني إذا شئت ثالثاً والسلام» فاستخذى الوليد واستحيا لما قرأ وشاهد.. ثم قال: لقد أســأنا إلى ســليمان إذ بلغنا به هذا المبلغ، وبَادَرَ فأحضر حدّاداً فأزال القيد وعفا عن يزيد بن المهلب بعد أن منحه عشــرين ألفاً من الدراهم وقال له: إذهبْ كما تريد فلا سلطان للحجاج عليك مهما ألحف وأعاد».

ثم عاد إلى زوجته يستدني صفاءها، فلانتْ بعد جماح، وهدأتْ بعــد إباء عنيــد، ورأى الخليفــة أن يُداعبها ببعض الحديث، فقال في ملاطفة: إنك لتســتهزئين بالحجاج، ولو ـ والله ـ رأيتيه لاضطرب فــؤادك بين أضلاعك، وتلعثم على شفتيك قولُك النصيح!! فهزّتْ أم البنين رأسها ساخرة وقالتْ

في تحدّ صبغ ملامحها صبغة رائعة باهرة: عليّ به إن شئت، وسأريك مقامه بين يدي لتعلم من تكون ابنة عبدالعزيز!!

فضحك الوليد حتى استلقى على جنبيه وقال في إصرارٍ: لكِ ما تشائين، فالحجاج في طريقه إلينا منذ أيام. وسآذنُ له في لقائك لأرى موقفك من الرجل في عنفه الشديد فصاحت متهللة: وَعْدُ الحرُّ يا أميــر المؤمنين! وتفرّق بهما القول إلى سمرٍ حبيب.

تصرمت أيام، وحانت الســاعة المرتقبة، فمثل الحجاج بين يديّ الوليد، وتطارحا الرأي في شــجون من الحوادث، وأنانين من الوقائع، فقال أمير المؤمنين، وأمّ البنين تســمع من وراء ســتار إن زوجتي تريد لقائك يا حجاج فمتى؟ فردّ الحجاج فــي عجلة: دعك من رغبات النســاء ومفاكهتهنّ يا أمير المؤمنين، فإنما المرأة ريحانةٌ وليس قرمانة، فلا تطلعْها على سرِّك ومكايدة عدوك وأغلق دونها رأيك، فتستريح...

فضحك الوليد في خفةٍ، وقال: لا بدّ من مقابلتها الآن، وها هي ذي خلف الستار، ثم رُفع الحجاب بغتة، فظهرتْ أم البنين!

اضطرب الحجاج لما بدرَ منه، وفاجأتْه السيدة المغضبة تقــول: قِفْ يا حجــاج ولا تجلس، فلســتَ مــن آل مروان لتجلس جوار أمير المؤمنين.

فنهض الطاغية واقفاً كما أُمر.

فهزّتِ السيدة رأسها، وقالتْ في سخرية: إيه يا حجاج أنتَ الممتن علــى أمير المؤمنين بقتال ابــن الزبير وابن الأشــعث، أما والله لــولا أنْ علم الله أنك شــر خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة الحــرام، ولا بمصرع أول مولود في الإسلام!

فســكتَ الحجاج، ولــم يُجــبْ، فنظرت إليــه، وواصلتْ حديثها تقول في اشــمئزاز: إيه يا حجاج، أتَنْهي أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء، وبلوغ أوطاره معنا، فإن كُنَّ يلدن مثلك، فما أحقه بالقبول منك، وإن كنّ يلدن مثله فهو غير قابل لما تقول!!

فسكتَ الحجاج، ولم يُجب، فهزّت رأسها متشامخة ثم قالت في استخفاف:

لماذا هربت يا حجاج من «غزالة» وهي إحدى النســاء! أفكانت ريحانة وليســت قهرمانة، أم أنها فــي أنوثتها القوية كأسد هصور يزأر أمام رعديد خؤور؟

ثم صفقت، فحضرت جاريتها، فقالت أخرجيه أخرجيه!! فسحبت الطاغية كالدابة الذلول!!

قال الوليد وقد قابل الحجاج عقب ذلك: ما رأيك في أم البنين.

فردَّ الحجاج فـي احتـراس: والله يا أميـر المؤمنين ما سكتتْ عني حتى وجدت نفســي قد ذهبت وما ظننت أنثى تبلغ مبلغها بين النساء.

فصاح الوليد مبتســماً: ألا تترك كياستك معي يا حجاج مرةً واحدةً، أنا أدرى برأيك الخاص في أم البنين!!

ooo



بطلٌ مضطهدٌ

جلس سليمان بن عبد الملك بعد أيامٍ من توليته الخلافة، جائش الصدر ملتهب الغيظ يفكر في هؤلاء الذين أخلصوا الودّ لسلفه الوليد، فكانوا دعامة لعرشه، وسنداً لسلطانه، وأنه ليعضّ الكفّ غيظاً أن مات الحجاج قبل أن يتمكن من دمه، فكم كان يتمنى أن يبطئ به الأجل، حتى يتسلم الخلافة، فيستقدمه من العراق مصفداً مغلولاً، ثم يذيقه أمرّ وخزات السباب، وأشد داميات القوارص، حتى إذا انقطع به القول وأدركه البهر، أمر به فأريق دمه بين يديه، ثم بعث برأسه إلى العرق، فصُلت بمرأى عن مناوئيه، ومشهدٍ من أعوانه ومريديه، ولكن من ذا يتحكم في القدر، وقد أراد أن يفلت الحجاج من يديّ سليمان فينقذه الموت من فضيحة مُخجلة، وخزيٍ عظيمٍ... على أن الخليفة قد جال بفكره فيمن اصطنعهم الحجاج، واصطفاهم من القادة فذكر البطل الفاتح



قتيبة بن مسلم الباهلي، فاتح بلاد ما وراء النهر، وذكر الشاب الباسل محمد بن قاسم الثقفي بطل الهند، وفاتح بلاد السند، فابتسم ابتسامة شـامقة وقال في تشف حاقد: لا بد أن يكون في مصرع هذين البطلين بديلٌ عما فـات من دم الحجاج!! فلقد كانا من خيرة رجاله، وأعزّ أعوانـه، بل إن أحدهما قد ساعد الوليد على إحباط بيعتي وتشريد الأمر من يديّ، وهمَّ الآخر بذلك لولا أن سـبقت كلمة القضاء!! ولا بد أن يسيل دمهما مراقاً مهدوراً، فيعلم الناس أن سـليمان بن عبد الملك لا يمتنع على بأسه الصارم، بطل فاتح أو مغامر صنديد!!

وهدأتْ نفسـه قليـلاً حين صمـم على الغـدر بهذين البطلين، وابتسـم ابتسـامة المقتدر المعز المـذل.. غير أنّ هاجساً خفياً نبض في خاطره يذكره بما كسب هذان الباسلان للدولة العربية من أمجاد!! وما أهْدَيا إلى الإسلام من فتوح، وكاد يستمع إلى هذا الهتاف الطاهر، لولا أن عقارب الحسد لدغته في مجلسـه لدغاً ثائراً، فتراجع يقول: وما كسبتُ أنا من فتوح هذين الباسـلين؟ لقد كتبا بجاهدهما الرائع مجداً خالداً تذكره الأيام في سـجل الوليـد، وتحفظه الأقلام في صحيفة غير صحيفة سـليمان! حتى ليقـول التاريخ أن عهد الوليد بن عبد الملك، كان عهـد انتصار وفتوحٍ وإقبال... ثم ينتقل إلى عهـدي فلا يجد ما يقول... ليتهمـا كانا خاملين

رِعْدِيدَيْن، فلا يفخر ببطولتهما عهد الوليد، ولئن كانا على غير ما أود فلا بد أن أذيقهما النكال، غير عابئ بما يتحدث به الناس!!

وطرق الباب حاجبه يستأذن عليه في دخول صديقه يزيد بن المهلب، ومعه بطل أفريقيا وفاتح الأندلس موسى بن نصير!!

فتجهّم سليمان في مجلسهن تجهماً عابساً، ثم صاح في غضب: أدخل يزيد وحده، واستبقِ موسى لديك حتى أنظر في أمره واستدعيه!!

ودخل يزيدي بن المهلب باسماً ضاحكاً، فحيا سلميان تحية الخلفاء، وأخذ مكانه إلى جواره، واندفع يقول في تملق واستعطاف:

لقد عاد للخلافة رونقها الخالب، وبهاؤها الساحر منذ ائتلق في آفاقها ضياء أمير المؤمنين!! ولقد كانت أيام الوليد ـ عفا الله عنه ـ محاقاً قائماً كسفت به نجوم، واحتفت في دياجيره كواكب!! ولكن الليل لا يدوم، فقد أذن الله لشمس العدالة أن تسطع وضيئة باهرة منذ سطوع أمير المؤمنين حرسه الله، فهنيئاً للعرب والمسلمين بعهدك السعيد!!

فترنح الخليفة في مجلسه، وهز الأطراء الكاذب من أعطافه، فقال في ابتسام مغرور: ولقد كاد كوكبك يا يزيد يختفي في ظلام الوليد، لولا أن تداركتك بالإنقاذ مجازفاً بحياة ولدي أيوب!!

فانحنى يزيد انحناءة الشكر والاعتراف بالجميل، وقال في دهاء: لعن الله الحجاج فقد سوّد صحيفتي لدى الوليد، ولولا عناية إلاهية دفعتك يا مولاي إلى إنقاذي لصرت رمة بالية تصفر عليها الريح!!

فعضَّ سليمان على شفتيه كالمغتاظ، وقال في أسف: ليتني أدركت الحجاج فأريق دمه بين يديك، ولئن ذهب بجرمه إلى عذاب الله وجهنمه، فلن يذهب أصفياؤه وعشراؤه من قبضتي الباطشة، فإن لهم يوماً عبوساً تمطر سماؤه دمياً قانياً، وتنفجر أرضه باللهيب!!

ثم قال يزيد في تملقٍ: هذا بعض ما يستحقون في الدنيا، ولهم في الآخرة لدى الجبار المنتقم سوء المصير!

فردَّ الخليفة يقول في تشف حقود: سأنتقم قريباً من كل غاشم أيَّد سلطان الوليد، وأعانه على الثبات والاستقرار، ومن هؤلاء موسى بن نصير، وإن اصطحبته معك لتشفع فيه! سأنتقم من موسى! ومن قتيبة! ومن محمد بن القاسم. ومن كل بطل كسب المجد لتاريخ الوليد!

فاكتئب يزيـد اكتئاباً ظهرت دلائله العابسـة في وجهه، وقال في أدبٍ رقيقٍ: الأمر أمر مولاي أمير المؤمنين، يعزُّ من يشاء ويذلُّ من يشـاء! غير أني أعلم أن موسى بن نصير لم يكن من أعوان الحجاج! فقد كان يبسـط نفوذه غرباً، وكان طاغية ثقيف في المشرق يطيح بالرقاب!!

فنظر سـليمان نظرة ماكرة إلى يزيد، وقـال في غضب: أين ذهب عقلـك يا هذا؟ ألم يثبّت موسـى بن نصير دعائم الخلافة للوليد في أفريقية، ثم ألم يفتح بلاد الأندلس فيغنم آلاف الآلاف من الدرر والكنـوز، ويرجع إلى الوليد فيعطيه جميع ما أحرز، ويكتب بذلـك صحيفة لامعة من صفحات الجالس على عرش الخلافة بدمشق! هذا قليل يا يزيد؟!

فردَّ يزيد في تخابث: لقد أسـاء موسـى بلا شك إساءة غير مقصودة، ولو كان يعلم ما بينك وبين أخيك من شـقاق لتريّث قليلاً في الفتح والانتصار، ومن أين له أن يعلم، وهو نازح بعيد، وأسرار القصر مغيبات محجبات!

فصاح سـليمان في غضب: أتخدعني يا يزيد؟! لقد همّ الوليـد بخلعي من ولاية العهد وتحـدث في ذلك مع ولائه وعماله، وبـادر الحجاج بالامتثـال فأعلـن الموافقة وأخذ يحقّرني في العراقين، ويختلق عني شـتى الأراجيف، ومثل

هذه الأنباء لا بد أن تصل إلى أمير فاتح كموسى بن نصير، يحتل إمارة ممتدة الأطراف ويتنقل في فتوحه من مضمار إلى مضمار!!

فنظر يزيد نظرة المتوسل، وسأل في أدب ولطف: أيمكن أن نسأل موسى عن مبلغ علمه، لنقف على ما لديه من أنباء فلعله في مغتربه النازح بريء بريء!!

فوقف سليمان في مجلسه غاضباً، وصاح: لقد راسلتُه شخصياً في أواخر عهد الوليد، وطلبتُ منه أن يرجئ حضوره بالغنائم والسبايا، أياماً معدودات، حتى يفارق الوليد هذا العالم، فيأتي إلي، فأرث أنا الكنوز والأموال، وأضيف مجد الفتوح إلى عهدي السعيد، ولكنه أسرع وبادر ليبهج الوليد!

فابتسم الوليد ابتسامة ماكرة، وقال في استفهام: من يدري لعل الرسالة لم تصل إلى موسى، وهو عن كثب منا، أفتأذن له يا أمير المؤمنين!

فقال سليمان في غلظةٍ: سآذن له، لترى عقوقه وجحوده، فتقضي عليه بشر المآب يا يزيد، ثم صفق بيده يطلب من الحاجب إدخال موسى مهاناً غير مكرم! فحضر القائد أسيفاً ضارعاً، تعلوه كآبة عابسة، ثم انحنى في استكانة مستسلمة يحيي أمير المؤمنين!

فقال سليمان في غطرسة متعالية، وشموخ متكبرٍ مقيتٍ: ألم تصلك رسالتي أيها الآثم الظالم؟ فكيف خالفتها وبادرت بالحضور؟!

فردَّ موسى في تؤدة هادئة: شهد الله لقد وصلت إليَّ رسالة أمير المؤمنين حرسه الله في منتصف الطريق، ومعي من السبايا والغنائم والأسلاب ما لا يدخل في نطاق، فإذا كررت راجعاً إلى الأندلس تمرّد الجنود، ونهب كل قائد ما تحت يده، ثم ساح في مضطرب الأرض بذخائره فلا أقدر على احتجازه، وإذا وقفت حيث أنا بين أفريقيا ومصر وبين قبائل البربر وحشود الروم، فسيختلط الجند والسبي بالناس، وربما استوطنوا هناك مكاناً لا أقدر على انتزاعهم منه، ويتعذر عليّ أن أصرفهم عنه... وإذ ذاك لم أجد بداً من المسير!

فقال سليمان في غيظ: لم تجد بداً من المسير لتسعد الوليد بما يدخل عليه المسرة والانتعاش، ولتشقيني بالغيظ والإنقباض دون اكتراث لواجب أو تفكير في مصير...

فأطرق موسى لحظة ثم رفع رأسه في هدوءٍ: رفقك يا أمير المؤمنين فإن ما فتح من بلاد الأندلس أقل بكثير مما لم يفتح بعد، ولئن أسعدني الله بعفو الخليفة ورضاه، لأنهضنّ على رأس الجيش بالأندلس، ولأفتحن كل مكان لم تطأه

أقدام العرب من قبل، فقد كان في نيتي علم الله أن استخث الغزو متواصلاً ذؤوباً فأخترق المدن الإفرنجية، حتى أعود إلى المشرق عن طريق القسطنطينية، وإذ ذاك أرجع إلى أمير المؤمنين سليمان بأضعاف ما رجعت به إلى الوليد، وأضيف إلى عهده الزاهر من الفتوح ما لا يقاب به عهد أخيه!! فتنمر سليمان في مجلسه، وقال في استهزاء: ويحه! يستميلني بمعسول الأحلام، ولست ممن ينخدعون، ولا بدّ من الانتقام العنيف!

فأطرق موسى ولم يجب! وصاح سليمان بيزيد! لقد اعترف صاحبك بوصول رسالتي إليه، ومعصيته لرأيي فماذا تقول؟

فقال يزيد في أدبٍ: تلك جريرة فادحة دون نزاع، ولكنها لم تكن عن قصد خبيث، ولئن أطال الله في الأجل ليخدمن أمير المؤمنين بأضعاف ما خدم به الوليد!

فقال سليمان: إن موسى خادم لئيم: أفيخدمني وقد عصى سيده وولي نعمته معاوية بن أبي سفيان؟

فرفع موسى رأسه في أدبٍ وقال: متى كان ذلك يا أمير المؤمنين!؟ لقد كنت عبد معاوية المطيع، وكان رحمه الله يقدر طاعتي وولائي فغمرني بخيره الجزيل!

فأجاب سـليمان في جفاءٍ غليظٍ: لقد تناقل الناس عنك أنه دعـاك إلى حرب علي بن أبي طالب فـي موقعة صفين، فلم تشأ أن تطيع؟

فأجاب موسـى في صراحـة مهذبة لا ينقصهـا الثبات: ذلك حق يا أميـر المؤمنين فقد قلـت لمعاوية رحمه الله أن المحارب لا يؤدي واجبه في الميدان دون إخلاص واقتناع!! وإن ضميري الحربي لا يأذن لي أن أخوض حرباً طحوناً بين طائفتين من المسلمين ولو كانت شهد الله من حروب الجهاد لبذلت الروح في سخاء.

فقهقه سليمان كالساخر، وقال: كأنك تعتقد أن أتباع علي كانوا من المسلمين!

فأطرق موسـى إلى الأرض ولم يجـب!! وتدارك يزيد الموقف فقال لقد قبل معاوية رحمه الله اسـتعفاءه عن صدر سـمح، وعفو حليم! وأرى أن يعفو عنه أمير المؤمنين اليوم إحياء لذكرى معاوية العظيم!

فنظر سـليمان نظرة سـاخرة ثـم قال: فيم اسـتخفافك بوالدي عبد الملك ابن مروان أيها الصعلوك الحقير!

فنظر موسـى كالمأخـوذ وقال في عجب: حاشـا لله أن أسـتخف بسـيدي عبد الملك رحمـه الله، ولـو علم بذلك لأذاقني شر النكال!!

فردَّ سليمان في سخرية: لقد جاءتني الأنباء أنك خرجت بالناس حين كنت والياً على أفريقيا مصلّياً صلاة الاستسقاء، فأخذت تدعو الله دعوات ضارعة ليرسل الغيث على المسلمين، فقيل لك: ادع لعبد الملك أمير المؤمنين، فقلت في وقاحة: هذا موقف لا يذكر فيه غير الرحمن! أصحيح ذلك؟

فقال موسى في رفقٍ مهذبٍ: نعم يا أمير المؤمنين، فالموقف موقف السماء لا موقف الأرض، ولولا الإخلاص لله وحده ما هطل السحاب!

فتضاحك سليمان وقال ليزيد في استهتار: يتظاهر اللئيم أمامي بالخشية والصلاح كأنني لا أدريه!

فقال يزيد بن المهلب مبتسماً: لعله صادق يا أمير المؤمنين، ولا عليك في ذلك، فمن خاف الله أمنه الناس!

فانتهز الخليفة رد صاحبه وقال في عجلة: كيف يأمنه الناس وقد فعل بطارق ابن زياد الأفاعيل؟

فردّ موسى في أدبٍ عفيفٍ: أتأذن لي يا أمير المؤمنين، فتجهم وجه الخليفة وصاح يقول: لا أريد أن أسمع حديثك، فاسكت على غيظك الحبيس!

فتدخل ابن المهلب ملاطفاً، وقال في توسل: لو تفضل أمير المؤمنين حفظه الله فأذن بمناقشة موسى في مسألة طارق، لعرفنا المخطئ والمصيب!

فصاح سليمان في غيظٍ غليظٍ: الأمر واضح يا يزيد، لقد حسد موسى طارقاً على شجاعته وبسالته، وعزّ عليه أن يستطيع هذا البربري الباسل، فتح بلاد الأندلس بعد قليل، فافترى عليه، المآثم، وقابل بطولته الباسلة بدناءة سافلة، وغدر وبيل!!

فنظر موسى كمن يستأذن في القول على حياء: فأدرك يزيد ما بنفسه فقال لأمير المؤمنين بأبيك رحمه الله ألا أذنت يا مولاي!

فأظهر الخليفة تأففه الكريه، وجعل ينفخ في مجلسه كمن يتضجر بصاحبه ثم لانت عريكته بعد لأي، فأشار بيده إشارة من يأذن للمتهم في الحديث، فاندفع موسى بن نصير يقول في هدوء وقور: كان طارق بن زياد ساعدي الأيمن في أفريقية، فقد اكتشفت بطولته النادرة وثباته الرائع، فرميت به الخطوب في معارك حامية، ومآزق دامية، واستطاع أن يغنم النصر سريعاً في إعجاب وتقدير، وكانت قبائل البربر المترامية ترهب فزعاً لسطوته وشدة مراسه، فما يثور بطن من

البطون المتناحرة الحاقدة، حتى يهب طارقاً كالعاصفة فيجعل الثورة طاعة، والتمرد إذعاناً واستسلاماً، ولم يداخلني شيء من الحقد عليه في بسالته وهيبته، وهو بين قومه ومعشره من البربر، ولو كان الأمر كما قيل كذباً لأمير المؤمنين لخفت على نفسي منه، ولكني كنت ـ علم الله ـ أعجب بفروسيته، وأشيد ببسالته على رؤوس الأشهاد!! فتولى قيادة جيوشي في فتح بقية بلاد المغرب، واستطاع السيطرة على حصون المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلسي!! ثم قاتل وجالد حتى بلغ (طنجة) قصبة البلاد وأم المدائن فحاصرها وافتتحها، وأسلم أهلها على يده، وصار أميرها المطاع، أفلو كنت حاسداً حاقداً كما قيل لأمير المؤمنين، أفأستطيع الصبر عليه وهو أسد خادر في عرينه بين أشباله وآجامه وغياضه!! بربك، ألا نظرت للأمر بعين الإنصاف يا أمير المؤمنين!!

فقال سليمان في ضيقٍ متبرم: ولكن الشهود قد اعترفوا جميعاً بأنك حين التقيت به في مدينة (استرقة) لأول مرة، وقد ترجل عن جواده، ونهض قائماً بين يديك، يحيّيك تحية الجندي للقائد الآمر... جابهته بالملامة المؤذية والنقيصة المخزية أمام عسكره، وبالغت في تهجينه، ثم ضربته بالسوط، وغلّلته بالقيد مع أن الأندلس فتحت على يديه لا على يديك!!

فأجاب المتهم في قوة ثابتة لا يشوبها تردد والتواء: شهد الله لم أضرب طارقاً بسـوطٍ، أو أغل يده فـي قيد!! ولكني سـقت إليه بعض الملام لأمر خالفني فيـه، إذ كنت أوصيته أن يقف حيث آمر حتـى تأتيه الإمداد!! ولكنه خالف الأمر، فاستوجب مني بعض الملام!!

فصاح سليمان في لهجةٍ راعبةٍ: لا أم لك يا موسى! أمثلك يموه علـيَّ الأحاديث، لقد سـارعت إليه، فوجدته توسـع في الفتح على أحسن ما يرجوه قائد مقدام!! فجنى لك خير الثمار من أيسـر طريق، دون أن يحصل ما تتوقعـه، كاذباً من وثوب مكيدة أو نشـوب ثورة!! وقابلته، وقد تـمّ كل نجاح على يده فلِمَ الملامة والتشـهير أيها الرئيس الحقود الخـداع؟! فواصل موسى حديث في هدوءٍ ـ وكأنه لم يسمع سباب أمير المؤمنين ـ فقـال في جرأة ثابتـة: إن أوامر القيادة في سـاحة الميدان لا بد أن تطاع يـا مولاي، فإذا تجرأ جندي على مخالفتها لسـبب ما يرتئيه، فقد اسـتوجب الملام! وهبه خالـف ووفق، فلا يبعد أن يؤمر مرة أخرى، فيخالف ويسـتعصى عليه النجاح، فتكون الهزيمة الشنعاء!!

فصاح سـليمان متبرمـاً: صهٍ يـا لجوج، لقد كشـفنا طواياك!!

فقـال يزيد بن المهلب فـي رفق مسـتعطف: لقد أخطأ موسـى يا أمير المؤمنين؛ ولكنه المسـؤول المـدّر لعواقب الأمور! أفلا تشمله بالمغفرة والرضوان!!

فتهجم سليمان في غلظة وقال: أأشمله بالصفح والغفران، وقد سرق الغنائم، وسلب الأموال!!

فقال موسـى في ضراعة: أين هذه الأموال التي قيل لك عنها يـا أمير المؤمنين ولو كنت سـرقت شـيئاً أو اغتصبته لأتيت به معي ثم أعطيته إلى خاصتي من الأقارب والأشياع! إنّ منزلي أمامك، وأقاربي تحـت قبضتك!! ولك أن تبحث في كل فج عمـا يمكن أن أتسـتر عليه!! ولـن يغلب أحد سلطان أمير المؤمنين.

فصاح سـليمان محتداً... ورأس والدي عبد الملك إنك لسـارق مغتصب حقود، ولقد كنت علـي أن أفصل رقبتك جسدك لولا شفاعة يزيد!! وهأنذا أهب لك حياتك من أجله وحده! على أن تدفع سريعاً ما اغتصبت من مال المسلمين!!

فقال موسى في يأسٍ لم أغتصب درهماً واحداً يا مولاي! كذبٌ ما قيل، كذبٌ ما قيل، فعبس سـليمان في وجهه عبسة منكـرة، والتفت يصيح بيزيد: أمامـك صاحبك، قد حفظت دمه من أجلك وحدك على أن أتسلم منكما ستمائة وتسعين

ألفاً ذهباً في حوزته! ولئـــن لم يحضر ما قدرته عليه ليكونن من الهالكيـــن... فردّ يزيد في امتنان: الشـــكر والنعمة لأمير المؤمنين.

ثم خرج الرجـــلان يطوفـــان بالقبائل. ويلمان بشـــعاب الأحياء، يجمعان من كل أريحي كريم ما تجود به نفســـه من العطاء! وفيهم من يتبرع لســـخائه بألف دينـــار، ومن يقذف على مضض أليـــم بدرهم واحـــد!! وقد دفعـــت قبيلة لخم وحدها تسعين ألفاً، ودفع آل المهلب قرابة ذلك!!

ولبث القائد المظفر يتسول ويستدي الأيدي من الرؤساء والأذناب حتى حصل على أكثر من النصف المطلوب، وأقبل مع صاحبه يزيد يتشفعان في الباقي في ملقٍ واستعطافٍ! فعفا الخليفة بعد تشـــددٍ غليظٍ، وأرسل لعناته الغاضبة على القائد المظلوم! فسمعها في صمتٍ شاحبٍ كئيبٍ، ثم تسلل حزيناً باكياً إلى حيث لم يسمع عنه بعد ذلك تاريخ!! وخيم محاق بهيم!!

❂❂❂



خليفةٌ زاهدٌ

تأوه سـليمان بن عبدالملك في مرقده لثقـل في أمعائه ظلّ يلح عليه حتى شَـرّدَ هدوءه، فبعث إلى محترفي الطب في دمشق فلم يجد لديهم ما يذهب سقامه! واستعصى الداء واسـتفحل حتى بدا الموت لعينه فدعا على عجل مستشاره رجاء ابن حيوة الكندي، وأخذ يبثه ما يكابد من سقام! فقال رجاء أشـرت عليك يا أمير المؤمنين ألّا تفـرط في الطعام والشـراب، فقد رأيتك منكباً عليهما انكباباً لا يدع لمعدتك راحة من تعب أو أمنـاً من اضطراب، ولئن شـفى الله أمير المومنيـن لأطردنَّ من بقصره من الطهـاة!! ولأجعلنّ غذاءه سهلاً ميسوراً يُصحّ ولا يمل، ويفيد ولا يوبق..

فنظر سـليمان إليه نظـرة حزينة وقال في ألـمٍ: ما أظن شـقائي ميسـوراً بعدم اليوم، فقـد رجع الأطبـاء مني دون طائل، وإني لأحسّ من سطوة الداء بما لم أحسّ به من قبل،

فأمعائي تكاد تتشقى قطعاً قطعاً، ونفسي المبهور اللاهث يكاد ينقطع، وعرقي كما ترى يتصبب كالغيث دون انقطاع فأطرق رجاء في إشفاق وهو يقول: لا يأس من روح الله!! ثم رفع رأسه فوجد عيني سليمان تدمعان!! فابتسم ابتسامة مشجعة! وقال في ملاطفة: أويبكي أمير المؤمنين؟

فردّ سليمان في ضيق، وما لي لا أبكي يا رجاء!! وقد مات ولدي أيوب وكنت أتمنى أن يكون وليّ عهدي وصاحب أمر الناس من بعدي، وإني أستعرض أولادي الصغار فأجدهم أطفالاً لا يرضى بهم أحد مهما أقمت الوصيّ الأمين!!

فقال رجاء في حزم: إن مشيئة الله يا أمير المؤمنين فوق كل شيء، وللخلافة أعباؤها الثقيلة فلعلّ الله قد رحم أفلاذ أكبادك أن يصطلوا بنيرانها ولئن مرَّ عهدك وادعاً ساكناً، فليس هكذا الأيام، ولعلك رعاك الله وشفاك تذكرُ ما قابله أبوك رحمه الله من صعاب، فزفر سليمان زفرة حارة! وقال لقد رفَّهت عني بحديثك يا رجاء وما أرى يومي إلا قد حان وأحب أن أستخلف من أبناء مروان من ينهض بشؤون المسلمين فمن تراه؟

فسكت رجاء كالمفكر ثم قال: أبقاك الله يا أمير المؤمنين وعافاك.. إن اليسرَ بعد العسر والضيق بعد الفرج، وما أظنّ



مرضك غير سحابة صيف تنقشع عن قريب! فدعك من حديث الوصية الآن، فتأوّه سليمان كالملدوغ وقال: أنت يا رجاء لا تحسّ بضناي الكارب وألمي الثقيل! ناشدتك الله أن تختار معي الخليفة الأمين!!

فنظر إليه رجاء نظرة حائرة ثم قال في جد حازم: إذا صممتَ يا أمير المؤمنين على الوصية فاعلم أنك ستُحاسب في قبرك عمَّن استخلفتَ على المسلمين فإن كان صادق العقيدة حسن السيرة كانت أعماله في ميزانك وتقرّبتَ به شفيعاً إلى الله وإن كان على غير ذلك رانتْ ذنوبه على كاهلك ولقيتَ الله بحساب رجلين لا رجل! فالله الله يا أمير المؤمنين.

فتطلَّع سليمان إلى رجاء وقد وضع يده على أحشائه كأنّه يحاول أن يسكن زلزلة تثور! وقال: باركَ الله فيك من ناصح أمين يا رجاء! هكذا العلماء الأتقياء ورثة النبيين! فمن ترشَّح من أبناء عبدالملك بن مروان!!

فقال رجاء سريعاً كأنما يحاول أن ينتهز رضا سليمان وخشوعه: ولِمَ تُضيّق الدائرة يا أمير المؤمنين فلا تتعدى أبناء عبدالملك! وأنا أعرف أن هشاماً ويزيد أخويك لا يبلغان من القبول مبلغ سواهما من بني مروان!!

فقال سليمان: لا، لا، عافاك الله، أيخرج المُلك من بني أبي!! وإلى مَنْ يتجه يا رجاء؟

فقال رجاء في تصميم: إن أردتَ وجه الله فإلى عمر بن عبدالعزيز بن مروان ثم إن أردت الأمر بعد ذلك لبني عبدالملك فبايعْ ليزيد أخيك من بعده!!

فعضّ سليمان على شفتيه كالحائر لحظة ثم عاد إليه هدوءه فقال: لقد نسيتُ عمر بن عبدالعزيز فجزاك الله خيراً إذ ذكرتني به الآن.

فابتسمَ كالمرتاح، وقال: بربّك يا أمير المؤمنين أترى في بني مروان أعدلَ منه سيرة وأنقى سريرة، وأصلبَ إيماناً وأصدق يقيناً في النائبات!!

فقال سليمان مؤمّناً على قوله: لا والله! ثم إن له عليّ ديناً ثقيلاً حان أن أوفيه دون إمهال!!

فقال رجاء في أدب لولا إشفاقي الحريص على صحتك يا أمير المؤمنين لسألتك أن توضح لي كيف اقترضتَ منه هذا الدين الثقيل.

فاعتدل سليمان من نومته وقد انطبعتْ على محيّاه الشاحب ملامح ساهمة وقال في همسٍ وخفوتٍ: تعلمُ يا رجاء أن أخي الوليد ـ عفا الله عنه ـ أراد خلعي من ولاية



العهد، وكاتب عَمَّاله في الأمصـار فأيدوه وظاهروه!! ولكن عمر بن عبدالعزيز وكان والياً على المدينة جاهره بالعصيان! وقال لا أنقضُ بيعتي الصادقة لسليمان فأغضب الرحمن!!

فقال رجاء في ابتسام: ليسَ هذا بمستغربٍ من عمر فهو لا يخشـى في الحق لومة لائم من الخلفاء!! فتابع الخليفة يقول: وقد تعرّض لاضطهادٍ بالغٍ من أجل موقعه، فعُزل عن المدينة، وسُجن في مكان خاص ليرجع في بيعته، وأغلظَ له الوليد في الوعيد! ومع مـا لقي من العنت الكريه فقد وقف ثابتاً لا يتزحزح! وكأنه الطود المسـكين، ويميناً لولا ثبات عمر وصلابتهُ لطارت عني خلافة الله في الناس!!

فانبرى رجاء يقول: وقـد كانَ في ولايتـه على المدينة مثالَ العدل والرحمـة، وكثيراً ما لجأ إليه الهاربون من بطشِ الحجاج فأطعمهم من جوع وآمنهم من خوفٍ، وقد اصطفى لأول عهده بالولاية عشـرةً مـن العلماء الورعيـن فجعلهم مستشاريه! فكانوا عضده القوي على الإصلاح!! ورجلٌ يفعل ذلك في إمارته الصغيرة، لا بد أن يأتي منه الخير الكثير إذا استخلفه الله في الناس.. فقال سليمان في هدوء.

لقد اسـتجبتُ إليك يا رجاء فاكتبْ عهدي إلى عمر، ثم إلى يزيد من بعده، ومُر النـاس أن يبايعوا من نصصتُ عليه

في كتابـي دون أن يعلَموا من يكون، وكانت فرصةٌ سـانحة اهتبلها رجاء فصدع بما أُمر وبايع الناس.



كان عمر جالسـاً في بيته، لا يتطرق إلى ذهنه أنه أصبح قاب قوسـين أو أدنى من إمارة المؤمنين فسمع الطرق على بابه ملحـاً عاجلاً فخـرج يقابل الوافدين في هـدوء! فلقي من ينعـون إليه سـليمان بن عبدالملك ثم يبشـرونه بإمارة المؤمنين.

لم تكْسُ البشاشـة وجه الخليفة الجديـد بل امتقع لونه امتقاعاً مُغبّراً، ونظر إلى الأرض في صمت! وجعل يهزُّ رأسه كالحائر اللهيف.

فصاح رجاء بن حيوة! ما بالُ أمير المؤمنين!

فرفع عمر رأسه وقال: والله ما طلبتُ هذا الأمر قط! ولو وددتُ أن بيني وبينه بُعْدَ المشـرقين فقال رجاء في صراحة: أنت أحقُّ به من سواك! وقد شـرّفك الله به فهلمّ إلى الناس فنظر عمر إلى صاحبه وقال في دعة: مثلك يا رجاء في علمه وجلاله يعلم أن الفقير الجائع، والمريض الضائع، والمظلوم المتهور والشيخ الكبير في أقطار الأرض وأطراف البلاد! كل



واحد من أولئــك غريمي ومخاصمي يــوم القيامة!! له حقٌّ عليّ غير كاتب إليّ فيه، ولا طالبه مني فكيف لي بهولاء!!

فصاح رجاء في اعتداد: قم يــا أمير المؤمنين إلى المنبر فالناس ينتظرون!!...

ســار عمر إلى مــا أراده الله لــه، فخطب النــاسَ خطبة أوضحتْ منهاجه، وفصلت طريقتــه! فخرجوا يتفاءلون بعهده ويتحدثــون عما ينتظرهــم من رحمــة وإحســان!! فلما همّ بالذهاب إلى قصــر الخلافة رأى مراكب فخمــة تظهر عليها الجدة المونقة وقد هُيّئتْ لتندرج في موكبه على وضع محددّ معلوم فالتفت إلى خدامه مزاحم وسأل: ما بال هذه المراكب؟

فقال كبير حراس الخلافة: هذه مراكب جديدة لم تُركب قط، يمتطيها الخليفة الجديــد أول ما يركب! وهي تتهيّأ من ساعة ميلادها لمثل هذا اليوم الشهير.

فعبسَ عمر عبسة معبّرة وصاح بغلامه مزاحم:!

يا غلام ضمّ هذه المطايا إلى بيت مال المسلمين.

وركــب الخليفة بغلته المعتــادة، ورمى ببصــره إلى ما أمامه، فوجد ســرادقات تــزدان بالأثاث الباهــر من نمارق وأرائك ووسائد! فسأل في دهشة ما هذا؟ فقال كبير الحراس وتلك ســرادقات حديثة لم يجلــسْ فيها أحد وقــد أعدّت

لاســتقبال أمير المؤمنين، فنظر عمر مدهوشاً عن يمنيه وعن خلفه، وفي عينيه اســتنكار صارخ لما يلحظ ثم قال لغلامه مزاحم: وهذه أيضاً ضمّها إلى بيت مالِ المسلمين!!

وما أخذ مقعده في مجلس الخلافة في القصر حتى جاءه أولاد ســليمان بن عبدالملك ومن خلفهــم أثقال باهظة من الثياب المطــرزة بالحرير، والقوارير المفعمــة بالطيب، وقد قســموا الأحمال ثم قالوا هذا لنا، وهذا لك، فسأل الخليفة عما يشهد! فقال رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين لقد جرت تقاليد بيتــك ـ ولعلك تــدري ـ أن ثياب الخليفــة الراحل وأدوات زينته وأبهته يُنظر فيها بعد موته! فما لبســه ولو مرة واحدة أو شم منه ولو شيئاً يســيراً فهو لورثته، وما لم يمسُ من الطيب والثياب فهو للخليفة الجديد.

فقال عمر: يا ســبحان الله ليس لي منها شيء! ولا لورثة ســليمان! يا مزاحم ردّها جميعها إلى بيت مال المسلمين.. وانصرف أبناء الخليفة الفقيد صِفْر الأيدي واجمين.



وكما فوجئ عمر بالخلافة فوجئت بها زوجته وابنة عمه إذ كانت فاطمة بنت عبدالملك، جالسة في بيتها لا تؤمل أن

تصبح قريباً زوجة أمير المؤمنين، وصاحب الأمر في الناس!! فأتتها الأنباء العاجلة تُعلن أن الخلافة قد انتقلت إلى زوجها الحبيب، وأحسّت في أعماقها فرحة هادئة!! إذ أن الخليفة الراحل أخوها وابن أبيها، ولا بد أن يطوف بها ملم من الأسى حين تذكر أن أغصان دوحتها العالية التي أنبتها والدها عبد الملك تتساقط شيئاً فشيئاً!! وتهب عليها الرياح القاصفة بين الحين والحين.. ثم أخذت تعقد موازنة حائرة بين الأخ والزوج! ولكنها رجحت كفة الزوج فجأة حين تذكرت أخاها الوليد! ذلك الذي لم يرع لها حرمة الدم ووشيجة الثدي، فرفض رجاءها، وأهان وفادتها حين خفت إليه ترجوه أن يخفف قليلاً من اضطهاد زوجها عمر من ناحية، وأخيها سليمان من ناحية أخرى، فما رجعت بغير الخيبة والخذلان.. إن أخاها مهما حمل اسم أبيها مِلْكٌ لغيرها من الإناث فهي تصرف أمره وتملي عليه تحت ستار شفاف لا يراه بعينيه، ولكن تأثيره يظهر في تصرفه واتجاهه!! أما زوجها عمر فهي التي ستصرفه وتوحي إليه بكل ما يريد، ولم تكد تسترسل في أحلامها المقبلة، حتى وجدت نساء أمية يفدن إلى بيتها يسارعن إلى تهنئتها ويحطن بها حفاوة وإكبار، ويبدين من التزلف والإطراء ما ذاقت به طعم الرئاسة، والسلطان بعد أن افتقدته طويلاً منذ كان والدها العظيم على ظهر الحياة!!

وقد طاف بها طائف التيه! فعرفت أنها من الآن أصبحت شيئاً آخر غير الذي كان، وأن مَنْ في الدولة العربية من العقائل والكريمات سيتوجهن إلى قبلتها، وسيلتمسن هدْيها، وسيقلدن عن تطلع خالب ما تلبس من زينة، وما ترضى من لباس!! وقد غصّت الدار بمن وفد إليها من بنات العم والخال فما تستطيع لكثرة من تشاهد أن تنتقل من مكان إلى مكان!! حتى إذا قضين حق التهنئة والتحبب أخذن يتصرفن في تودد آمل ولم يبق غير القليلات ممن رُفعت بينهن الكلفة الشديدة وبين سيدة البيت، فلسن ممن يثقل عليها أن يمتد بهن الزمان على التلبث والمقام، وما مضت ساعات قليلة حتى جاء الخليفة يزور زوجته، وطاف بعينيه الملهمتين في وجوه صواحبها، فعلم ما تخفي النفوس من مآرب! وما تتطلع إليه المهج من آمال... وأراد أن يقطع الطريق أمام من يظنْ أن بيت المال مورد للهبة الجزيلة والأعطيات المترفة! وإنما هو حق المسلمين في المشارق والمغارب، فليس لعين طامعة أن تمتد إلى نشبه وذخائره!! فجلس بينهن في لطف، ونادى فاطمة زوجته! فأسرعت إليه على عجلٍ حيث فاجأها بقوله:

أين ثوب زفافك الحريري المرصع! فابتسمت ابتسامة المتعجب! وقالت: ولِمَ يا أمير المؤمنين، فواصل سؤاله



يقــول: أأنا أحــبُّ إليكِ أم ثــوب الزفاف؟ فتعجبــت كثيراً لمقارنة بعيدة غيــر مقاربة، وتعجبت صاحباتهــا معاً تعجباً ذهب بهن إلى الدهشة والاستغراب! ولكن فاطمة قالت في ارتباك مأخوذ: أنت يا أمير المؤمنين أحبُّ إليَّ من كل شيءٍ في الحياة!!

فابتســم عمر قوال: إذن عليّ بثوب الزفــاف لأدعه في مكانه اللائق...

فدهش الحاضرات أكثر من ذي قبل، وسألت فاطمة في ابتســام مصطنع! وأين المكان اللائق به يــا أمير المؤمنين؟ فبادرها الخليفة بقوله: بيت مال المســلمين يــا فاطمة، فإن قيمته الثمينة لم تكن من ثروة عمي، ولكنها كانت من طعام الجائع ومال اليتيم!!

فأطرقت فاطمة لحظة ثــم انصرفت إلى حجرتها القريبة، وأحضرت الثوب فأعطته للخليفة، وخرج به إلى حيث أودعه مكانه الجديد!!

وتطلعت العيون إلــى العيون، وهمت الشــفاه أن تنطق بعد احتباس!! ولكن روعة المفاجأة قد حبست الألسنة وقتاً طويلاً، حتى نهضت إحدى عمّــات عمر، وقالت في جراءة: «هو حرٌّ مع زوجته! ولكني سأعرض عليه مطلبي اليسير».



قالت فاطمة في بسالةٍ ساذجةٍ! هو ذا قريب منكِ فاذهبي إليه كما تشائين..!

ولم تكن صاحبة المطمع أن تسمع ذلك حتى فارقت صواحبها وانطلقت إلى أمير المؤمنين، فحيته في دعابة، وقالت متضاحكة: أنت حرٌ مع زوجتك يا عمر!! ولكن عمتك تريد حقها العريض، فنظر عمر إليها في أدب وقال: أي حق يا عمتاه!!

فقالت في صوتٍ مرتفعٍ! ما كنت آخذه من عبد الملك والوليد وسليمان! وكم كنت تأخذين؟ عشرة آلاف دينار كل عام!!

فنظر عمر إليها نظرة مستنكرة وقال في حزم: لقد جاع الفقير، ومات المريض يا عمتاه لما تأخذين من مال الله!! سأعطيك والله كما أعطي نفسي.. أوتقبلين؟

فقالت في غضبٍ: وكم عطاؤك يا بنيّ!!

فقال عمر: عطائي ما يمسك رمقي! فأنا آكل الخبز وألبس الخشن! وأشربُ الماء ـ فرمقته في تحدٍ ساخطٍ وقالت: كلْ ما تشاء! وسنأكل ما نشتهي دون حاجة إليك! ولن نعرف بيتك يا ابن عبدالعزيز...!! وخرجت إلى صاحباتها عابسة تصخب وتلوم.

لقد عرف أمير المؤمنين أن عدله في بيت المال يثير عليه خصومات أقاربه! ويهيج حقوق بيــن أعمامه وأجداده ففكر وقدّر ثم عزم على أن يسـير سيرة الراشـدين دون تحيّز إلى قريب أو نسـيب!! ولم يكد يبرح مكانه حتى اسـتأذن عليه رجل من أهل حمص يخاصـم روح بن الوليد بن عبد الملك في ضيعة اغتصبهـا الوليد من أُسـرته فدعا أميـر المؤمنين روح بن الوليـد وقال لـه: أردد عليـه ضيعته! فقـال روح في عناد: هي معي بسـجلّ الوليد، فنظر أميـر المومنين إليه غاضباً وقال: وما يغنيك سـجل الوليد وقد قامت البيّنة على أن الضيعة للرجل! خلّها لصاحبها يا صاح. فقام روح غاضباً وأخذ يتوعَّد الحمصيّ في الطريق! وجاء النبأ إلى عمر فأرسل كعب بن حامد حارسـه وأمـره أن يجبر روحاً على تسـليم الضيعة فإذا عصى جاء برأسه، فلما لمس روح الجدّ في كعب سلّم الضيعة ساخطاً ناقماً، متباكياً لدى قرابته وذويه.



وخلا عمر إلى رجاء بن حيوة مستشـاره وصاحب سره، فقال: يا رجاء لقد تكالب القوم من بني أبينا وعمومتنا على زهرة الدنيا وطمعوا في بيـت المال! وقد ألزمتهم ما ألزمت به نفسي فورمت أنوف والتهبت أكباد! فبم تشير...؟

ففكر رجاء ملياً! وقال لقد تعـودوا النعيم، فلا تحرمهم منه جملة يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: لقد خالفت نفسـي ومنحتهم جميعاً عشـرة آلاف دينـار من بيت مال المسـلمين فلم تشـف غليلاً في صدورهم فماذا أصنع؟

فقال رجاء أعذرتَ إذن أمير المؤمنين!

فعضّ عمر على يده وقال: قد والله لقد لحقني من الندم ما أكل الكبد ولاع الجنان!! ولو استطعت أن أردَّها يا رجاء لفعلت!! إنها لو قسمت بالسـوية لكفت مؤونة أربعة آلاف بيت مـن المسـلمين!! ثم سـكت الصديقـان لحظة ذهب فيهـا تفكيرهما كل مذهـب!! حتى دخـل كعب بن حامد، فقال مبتسـماً: شـعراء الدولة بالباب يهنئون أمير المؤمنين بالخلافة، ويجمعون حولهم النـاس! فقلب عمر كفيه: وقال بعد زفـرة طويلة: لم نكد نفـرغ من بني مـروان حتى قدم عليَّ المداحون!! ابتسـم رجاء في أدب، وقال ملاطفاً: وما في ذلك يا أمير المؤمنين لقد مدح كعب رسـول الله وأجازه ومدح الخليفة عمر وأجازه، أليس لك قدوة في هذين.

فنظر عمر إلى رجاء كالمحتد وقال في صياح: أين ذهب عنك رشـادك يا ابن حيوة؟ لقد كان الرسـول يعطي اليسير

فيبلغ الرضا، وكان عمر كذلك يعطي في غير إسراف، ولكن بني أمية قد عوَّدوا الشعراء عادات باهظة فقطعوا ألسنتهم بالبذر والذخائر يغتصبونها من دماء المسلمين! فتراجع رجاء في تسليم واعتراف! وقال يا أمير المؤمنين وفقك الله فأنت أدرى الناس بالناس! وعليك أن تعطي ولا تمنع! قليلاً كان عطاؤك أم كثيراً، وإلا اتهمك الناس بمعاداة الأدب وأرجف بك الشعراء في كل مكان!!

فقال عمر في حدة: أوَأصغي للناس يا رجاء...!! دعهم يقولوا ما يشاؤون علم الله أني أحب من الشعر ما جاء كمذهب ابن الخطاب! فقد كان رحمه الله يطرب لشعر الحكمة، ويفضل زهير بن أبي سلمى لنصحه وتوجيهه! وأين فيمن يقفون على بابنا اليوم مثل زهير الحكيم!! وكلهم مقنع هجاء مجترئ مسراف!

فسأل رجاء متلطفاً ومن على بابك منهم يا أمير المومنين؟

فصفق عمر بيده فجاء صاحب بابه كعب بن حامد وأعلن أن بالباب الفرزدق وعمر بن أبي ربيعة! وكثير عزة والأحوص. وجرير بن عطية.

فقال عمر: ليس فيهم غير جرير!! أمنعهم جميعاً سواء..

فدهش رجاء وقال كلا يـــا أمير المؤمنين كلهم شـــعراء موهوبون!

فابتســـم عمر وقال كأنك يا رجاء لـــم تفطن إلى مقياس الشاعرية لدي! إن مقياس الشـــاعرية عندي ألا تغضب الله!! وهؤلاء قد أغضبوه!!

فتبســـم رجاء وقال متضاحكاً: وما أغضبك من شعر ابن عمك عمر بن أبي ربيعة وهو ذو قرابة ووداد...!! فقال عمر في جدٍ: لا قرَّب الله قرابته ولا حيا وجهه أليس هو القائل:

ألا ليت أني يوم حانتْ مَنِيّتي شَممت الذي ما بين عينيك والفم

ويا ليت سليمى في القبور صحيبتي هنالك أو في جنة أو جهنم

فليته تمنـــى لقاءها في الدنيا لا فـــي جهنم وعمل عملاً صالحاً، والله لا دخل عليَّ أبداً، فأســـرع رجـــاء يقول: وكأنه يســـتدرج الخليفة إلى الحديث عن الشعراء هذا عمر!! فماذا أغضبك من شعر كثير؟ فأجاب عمر! أنسيت أني كنت والي المدينة، وكان شـــعره مع صاحبه الأحوص يأتي إليَّ صباح مساء! أليس هو الذي يقول:

رهبان مدين والذين عهدتهم يبكون من حذر العذاب قعوداً

لو يسمعون كما سمعت حديثها خروا لعزة ركعاً وســـجوداً

اعزب به، فقبحه الله وقبح خياله الأثيم!

فنظر رجاء إلى الخليفة متأملاً، وقال أسمعتني ما نقمت من شعر كثير فماذا نقمت من شعر الأحوص حفظك الله فقال عمر، أبعده الله، أليس هو القائل، وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته.

الله بيني وبين سيدها يفرَّ عني بها واتَّبع!!

وقد كدت أقطع لسانه بالمدينة لولا ما أظهره أمامي من التوبة الكذوب. فقال رجاء: أنت والله رواية يا أمير المومنين!! فماذا نقمت من الفرزدق؟

فأجاب عمر متبرماً ومن الذي لا ينكر مجاهرته بالفحشاء، وفخره بالزنا إذ يقول:

هما دلتاني من ثمانين قامة كما انقض باز أقتم الريش كاسره

فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا أحيٌّ يرمى أم قتيل نحاذره

فقلت ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا ووليت في أعقاب ليل أبادره

اعزب به فوالله لا وطئ بساطنا أبداً..

فواصل رجاء سؤاله فقال يستدرج أمير المؤمنين! هؤلاء هم المغضوب عليهم من الشعراء فماذا أعجبك من جرير؟

فقال عمر في هدوء: إن جريراً في غزل عفيف شريف وله حنين صادق أمين اسمع قوله:

ذم المنازل بعد منزلة النوى والعيش بعد أولئك الأيام

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقف الزيارة فارجعي بسلام

ثم ابتسم وصفق بيده فدخل كعب، فقال أمير المؤمنين هذا وقت زيارة جرير، فادخله بسلام يا كعب!... دخل الشاعر وحده دون أحد من رهطه المتزاحمين، فأعجبه أن يكون الفريد المختار ولما مثل بين يدي عمر وهم بإنشاد قال له في أدب: اتق الله يا جرير ولا تقل إلا حقاً، فقال جرير هو ذاك يا أمير المؤمنين واندفع ينشد:

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر

جاء الخلافة إذ كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر

فقال عمر أسرفتَ يا جرير كفى كفى قد والله وليتُ هذا الأمر وما أملك إلا ثلثمائة درهم من المال فمائة أخذها عبد الله، ومائة أخذتها أم عبد الله يا غلام أعطه المائة الباقية فبغت جرير، ولكنه كتم انفعاله، وعجّل بقول هي والله أحب مال كسبته في الحياة يا أمير المؤمنين!! وخرج الشاعر فبحث الشعراء عما في يده في لهفة فرأوا مائة درهم لا تزيد! فتفرقوا مسرعين، ثم حان وقت الصلاة فاندفع رجاء وعمر يصلّيان!!

❂❂❂



علويٌّ ثائرٌ

جلس هشـام بن عبد الملك في خاصة بني أُمية يتحدث عن شؤون الخلافة، وأمور الحكم، ثم قال مزهواً لمستمعيه: لقد اطمأنت بي وسـائل الأمـن فما أخاف ثائـراً يهب، أو مشـاغباً ينهض، وقـد جعلت على الـولاة عيونـاً وأرصاداً في كل فـج فما تلبـث أن تأتيني الأنباء عنهـم بما يخفون وما يعلنون!! علـى أنني قلقٌ لهذه البلدة التي تجمع نسـل أبي تراب، وتضم إليهم من سـخف عقلـه! واضطرب هواه فأنا منها في جهدٍ حائـرٍ، وقلقٍ أكيدٍ، وسـيقدم الآن أميرها خالد بن عبد الملك بن الحرث، لأستطلع ما عنده من الأنباء، وعليكم أن تشـتركوا معي في الأمر اشـتراكاً بصيراً لأتبيّن مواضع السداد، فأعرف ما يرأب الصدع ويسد الفتوق.

قال قائل ممن يسـتمعون: إن الولاة يا أمير المؤمنين لا يتحدثون إليك عـن الواقع الصريح فكل أميـر على مدينته

يدعي أنه وطّد الأمن وأزال الخلاف، وأن إمارته حصن سابغ تلوذ به الخلافة، ومعقل مصون يدرأ الفتن والأعاصير! فكيف يصدقك خالد بن عبد الملك الحديث!!

فأجاب هشام في ثقة: لقد خيّرت خالداً، فهو يراسلني بما يقع أمامه عن صدق وأمانة، إذ أن عيوني عليه يبعثون إليّ بمثل ما يبعث من الأنباء! فلو كان الرجل مداهناً خادعاً، لانكشفت رسائله عن المداهنة والخداع.. ولعلكم تعرفون أنني كنت قبل الخلافة والياً على المدينة فأنا بها أدرى وأعلم ولن يستطيع والٍ ما أن يخفي عني شيئاً لمسته بيدي!!

فقال بعض الجلساء: وماذا يقول خالد في رسائله لأمير المؤمنين؟!

فقال هشام: إنه يتحدث بمرارة عن آل الحسن وآل الحسين، وسأحضره إليكم الآن فهو على باب من الصباح ينتظر الإذن.. وسأناقشه مناقشة دقيقة!! لتفهموا عنه ما تريدون.. ثم صفق بيده وأمر حاجبه بدعوة خالد.. فأتى على عجلٍ وأخذ مكانه في أدب وقور بين المجتمعين..

قال هشام ـ في تودّد ـ لقد كلفناك صعباً حين دعوناك إلينا من المدينة، فتجشمت مرهقات السفر في قيظ محرق وطريق عسير.

فابتســم خالد بن عبدالملك متشجماً ثم قال في ملاطفة لو أمرني أمير المؤمنين أن أصعد إلى السماد لحاولت! فكل أمره حبيب أثير.

فنظر الخليفة إلى وجــوه القوم لحظة، ثم توجه إلى خالد يسأله، وماذا تحمل إلينا من الأنباء!! لعلك تصدقني الحديث.

فردَّ خالد بلهجةٍ حازمــةٍ وقال: أيدَّ الله أميــر المومنين، فإن كرمه قد شــمل المسلمين فما يســتطيع أحد أن يتخلى عن طاعته وهيبته.. وإن المدينــة كلها رقاب منقادة ورؤوس مطرقــة، ومن يضمــر الكراهية من آل تراب لا يســتطيع أن يعلن، فأنا من ورآئهم أسترق السمع، وأقطع الطريق!!

قال هشــام: لقد جاءتني الأنباء عن يقظتــك ووفائك يا خالد!! ولكني أريد تفصيلاً وافياً عما تقوم به إزاء هؤلاء... ومعي في المجلس صفوة أحبابي وخيرة أعواني، وهم لا بد منصتون متأملون! فأجلُ النقابَ عن كل خافية مستترة، لنصل إلى علاج ســديد فتأمل خالد وجوه الحاضرين كمن يحاول أن يستشــف بالنظرة المتثبتة ما تمور به الخوالج المقنعة من أحاسيس ثم قال على مهل وعينهُ إلى هشام:

إن الناس بالمدينــة يكنّون لآل أبي تــراب حباً صادقاً، ويبدون لنا طاعة ظاهرة فرقابهم تحت أيدينا، ولا عن قلوبهم

ليســت في قبضتنا، وأنا أعاملهم على هــذا الاعتبار.. فأبذل الجهد المتيقظ في تكبيل الألسنة، وإغضاء العيون.

فردّ هشام في يقظةٍ: لو قلتَ غير ذلك لكذبتك وبادرتُ بعزلك، فقد كنت من قبل ـ والياً على المدينة وشاهدت من وفاء أهلها لآل أبي تراب مــا أدهش تفكيري، وأثار حيرتي، وما كنت بمســتطيع أن أحوّل الوفاء إلــى بغضاء، بل كنت أحاصر النار في مندلعها المشبوب كيلا تمتد إلى مكان آخر، فتعمّ النكبة ويسوء المصير.

فقال يوســف بن عمر الثقــي وكان مــن الحاضرين: إن الحال كما أرى قد تبدل يا أمير المؤمنين فقد كنتُ والياً على المدينة إذ كان بها علي زين العابدين ابن الحسن، وهو بقية الســيف من موقعة كربلاء من أبناء الحسين وكان في عبادته وأخلاقه مضرب المثل بني الناس، فــكان المدنيون يحبونه لذاته ويعتصمون به اعتصاماً قويــاً.. أما الآن فقد مات علي فتفرق الناس عن شيعته، ولم يجدوا منه بديلاً يحتل مكانته ذات الهيبة والجلال...

فقال هشام موافقاً: لقد أرقني عليٌّ هذا، وأطار النوم من عيني، فكنت أراه بالمســجد يؤم الناس فإذا فرغ من صلاته أكبوا علي يده تقبيلاً، وإذا خاطبه أحد انحنى أمامه عن حب

وشــغف لا عن هيبة وإرهاب، وإذا ســار فــي طريق تجمع الناس يفسحون له المكان، وتلمس العامة ثواب الله في اقتفاء خطواته، وتأمل وجهه البســام!! ولن أنسى أنني ذهبت إلى مكة ذات عام للطواف حول البيت فرأيت من ازدحام الناس ما أوقفني عن الطواف، فبحثت عن كرســي أنتظر عليه حتى يهدأ الناس، وشخصت ببصري لحظة فوجدت الزحام ينفرج فجأة وقــد تدافع الحاضرون عن أمام وعن خلف يفســحون الطريق! فنظرت فإذا علي زين العابدين يقدم للطواف ووراءه أفــواج العامة يتبركون بظلــه! فقلت من هــذا كالمتجاهل؟ فسمت من يقول مرتجلاً دون أناة:

هَذا الّذي تَعرِفُ البَطْحاءُ وَطْأتَهُ ... وَالبَيْتُ يعْرِفُهُ وَالحِلُّ وَالحَرَمُ

هذا ابنُ خَيرِ عِبــادِ الله كُلّهِمُ ... هذا التّقيّ النّقيّ الطّاهِرُ العَلَمُ

إذ رَأتْــهُ قُرَيْــشٌ قــال قائِلُها ... إلى مَكَارِمِ هذا يَنْتَهِي الكَرَمُ

فأطرقتُ عابســاً، وقد ذاع الشــعر كالبرق ورواه جميع الناس!! فما رأيك يا خالد؟! فنظــر الوالي نظرة مهذبة، ثم قال: لقد حكى يوسف بن عمر أن علياً زين العابدين قد مات ولم يترك بديلاً يحتل مكانته فــي الناس، ولكنني أعرف عن يقين أنه ترك بديلاً قوياً ورث عنه هيبته وإجلاله!! ذلكم هو زيد بن علي زين العابدين!

فهزَّ هشام رأسه! وقال في تأوه: زيد بن علي! لقد أتتني عنه الأنباء فكيف تراه!

قال خالد: يا أمير المومنين لقد رزق هذا الشاب فصاحة نادرة لم أرها في إنسان، وقد سمعته يناقش الفقهاء في حلقاتهم الدراسية فوجدتهم ينقطعون أمامه فما يقدرون على مباراته، فإذا جلس مجلس الوعظ تشقّق لسانه عن نبع سلسال وافق تهيم به الأسماع!! أما إذا سار في الطريق فلن أجد وصفاً لجلاله وهيبته غير ما حكاه أمير المؤمنين عن والده علي زين العابدين، لأن الناس هم الناس!!

فقال يوسف بن عمر: ولِمَ تركت الناس يتحلقون حوله في المسجد، ويسيرون وراءه في كل مكان دون أن تأخذ عليهم السبيل!!

فقال هشام في سرعة: صهٍ يا يوسف! لقد حاولتُ ذلك مع علي فلم أستطع، كنت أتهددُ الناس، وآخذهم بالوعيد حتى أظن أنهم قد افترقوا عن علي ثم أنظر فإذا الكثرة الكاثرة تتزاحم على مجلسه، وتتكالب على طريقه! وقد ذهب الوعيد هباء دون خوف واكتراث!!

فنظر أحد الحاضرين طويلاً إلى خالد ثم سأله في أدبٍ: أتستطيع أن تصف زيداً كأني أاره... فابتسم هشام وقال:

كنت أريد أن أقول هذا السؤال، فأجب يا خالد دون إمهال!

فقال الوالي في جدٍّ واهتمامٍ: هو يا أمير المؤمنين شاب قوي يبدو كفارس في ميدان، ويضئ وجهه بالنور كأن قمراً يلوح، وله لحية سوداء تكسوه جلالاً ورونقاً، فإذا سار وجدت إنساناً وسطاً لا إلى القصر أو الطول!! ولا إلى السمنة أو الهزال... أما إذا سمعت فصوت ممتلئ رنان!! وحديث مؤثر خلال!! وهو يقرأ القرآن بقراءة أثرت عنه، ويقول أنه أخذها عن أبيه، وقد افتتن بها المدنيون فلا يقرؤون بغيرها القرآن... بل إنهم يتناقلون كلماته وعباراته، ففي كل يوم يتحدثون، قال زيد كذا بالأمس، وقال زيد كذا اليوم!! حتى حرتُ ماذا أصنع، وقد ضاع ما بذلت من الجهود.

فاعتدل يوسف بن عمر الثقفي وقال في اعتداد: أتحدثنا - بإذن أمير المؤمنين - عن بعض ما أتيته من إرهاق زيد، وإهانة شيعته، لتعلم بعض ما كان؟ فقال هشام لخالد: قد أذنت فأوجبْ بما تراه!

فأطرق الوالي قليلاً كأنه يجمعُ خواطره، ثم رفع رأسه، وقال في ثباتٍ: علمتُ ذات يوم أن خصاماً عنيفاً نشب بين زيد بن علي بن الحسين وابن عمه جعفر بن الحسن بن الحسن، وقد شاع خبرهُ في المدينة،

فــأردتُ أن أشــعل الفتنــة ليزيد بينهمــا الســباب واللغو، فينخفض قدرهما في النــاس!! فأحضرتهما على الملأ قريباً من المسجد، وقلت لجعفر ما تقول في ابن عمك زيد، فبدأ ينتفض ويغلظ القول، فأسرع زيد يقول لابن عمه ـ وقد تنبَّه إلى ما أريــد ـ لا تعجل، يا أبا محمد، اعتــقَ زيد ما يملك إن خاصمك إلى خالد أمير المدينة، ثم انسحب من مجلسه وقال يخاطبني! أجمعتَ ذرية رسول الله لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر وعمر بن الخطــاب!! فأغريتُ به أحد صنائعي من آل عمرو بن حزم! فسبّه بأمه وأبيه!! ولكن الناس صاحوا به: اســكت قطع الله لســانك وأخذ بعضهم كفاً من حصباء ورمى بها في وجهه! فأطرقَ على خزي مشــين!! ثم انتهى المجلس بين نظرات الشامتين وصيحات الغاضبين!

قال أحد الحاضرين: ألا تستطيع أن تعارض زيداً في علمه ووعظه، فتأتي بفقيه من الشام أو العراق تصطنعه ليقعد له في مجلسه مقعد المخالف المنابذ فينصرف الناس عنه إلى حين!!

فقال هشــام: لا يا قوم! نريد حلاً عمليــاً، فالرجل فقيهٌ بصير روى عــن أبيه وعن جده!! وقد أشــرب المســلمون تصديق ما يقول دون نزاع، فلو عارضه أحد العلماء ما استمع إليه في شي، ولباء لأول مجلس بالخذلان والكنور..!

فقال خالد في أدب: ومَنْ يعارض زيداً في عمله! إن واصل بن عطاء، وجعفر بن الصادق، وأبا حنيفة فقيه العراق، وغيرهم من فقهاء الملة يتعبدون بآرائه، ويفتون باتباعه!! ولن يستطيع الوالي أن يضع قدر رجل يبجله الأئمة من الفقهاء والمحدثين.

قال هشام: هذا كلام سديد يا خالد، فلتبحثوا جميعاً معه إذن عن حلٍّ مفيدٍ، فتطلع خالد بن عبد الملك إلى هشام كمن يهم بالحديث، فأدرك الخليفة ما في نفسه، وقال في هدوء: أرى على شفتيك كلاماً!! فقل ما عن لك من الرأي.

فقال خالد بن عبد الملك: لقد علمتُ من أهل المدينة أن والد زيد كان لا يبرحها إلى بلدة من البدان غير مكة في موسم الحج، ولكني أشاهد زيد ابن عم علي يؤم البلدان النائية، فيقصد العراق والكوفة، وبعض ديار الشام!! وإنه ليقابل الولاة في كل مكان يحل به، فيخدعهم عن قصده السياسي ويتظاهر بالفِقه والحديث، وقد قيل لي أن خالد بن عبد الله القسري قد استضافه وأودع لديه كثيراً من الأموال، وأن له بالكوفة لأنصاراً من الشيعة، وبقية ممن آلمهم مصرع الحسين فهم يتمسكون بإمامته ويرون فيه رجل الموقف، وسيد الجماعة!! وهأنذا أدلي إليكم بجميع ما

تطرق إليَّ أن صدقاً وإن كذباً، وعليكم أن تميزوا الباطل من الحق، وتضعوا الخطة السديدة في وضوح:

فقال هشام: لقد سرني من خالد إخلاصه وثباته، وأعجبتني صراحته الجريئة التي يتحاشاها كثير من الولاة، فراراً من التبعة ورياء آثماً لصاحب الأمر، وإني لأثبته في مكانه بالمدينة آملاً أن يبذل ما أعهده لديه من حيلة وكياسة ليهدم كل متطلع متوثب عامل على تأليب الثوائر وتأريث الأضغان!! فقال قائل يوجه حديثه إلى الخليفة: وماذا يصنع أمير المؤمنين في خالد القسري، وقد صادق وحالف المتربصين؟

فقال هشام: لا أظن ما نقل عن خالد القسري صحيحاً معقولاً، لأنه يعلن آل أبي تراب جهرة على منابر العراق كل أسبوع! فكيف يسدي إليهم مال الخلافة وينتقصهم ويزدريهم أمام الناس!!

فقال يوسف بن عمر الثقفي يستدرك على هشام: يا أمير المؤمنين لا تعارُض بين الناحيتين، لأنه حين يعلن آل أبي تراب يعبّر عن رأي الخلافة، ولكن حينما يسدي إليهم... يعبّر عن ولائه وحبه وما نستطيع أن نبرئه من هوى القوم دون شاهد أكيد فلتحسم الشك باليقين.

فأطرق أمير المؤمنين بضع لحظات.. ثم نظر في وجوه القوم قائلاً: لقد عزلت خالداً عن العراق دفعاً للشبهة فقط، ووليت مكانه يوسف بن عمر ليسد في إمارته مسداً لن يبلغه سواه أما خالد بن عبد الملك فقد ثبته على المدنية واثقاً كل الثقة في كفايته وإخلاصه!!

ثم نهض ليقوم فأدرك الحاضرون رغبته في انتهاء الحديث فأسرعوا متسللين.



سار يوسف بن عمر الثقفي إلى العراق وجعل يتحسس خطوات زيد فيسأل متى كان بالكوفة ومتى رحل إلى البصرة وعند مَن كان يلقي برحله في الغدو والرواح!! ثم أخذ يدوّن أسماء من يعرف عنهم حباً متوارثاً لعلي وشيعته! ويزيد فيفاجئهم في منازلهم متسللاً مفتشاً، حتى ألمّ بكثير من مواقف زيد، وعرف عن يقين ما كان يتناقل في مجالسه الخاصة من دعوة صريحة إلى إمامة عادلة رشيدة تهتدي بهدى الكتاب، وتأمر راشدة بالمعروف وتنهى عن النكر، وقد نصب يوسف أرصاده في مناحي العراق، وأقام العيون بين المدينة والكوفة لتأتيه بأخبار زيد في ترحاله وحله، حتى

علم ذات صباح بقدومه إلى الكوفـــة، فخفَّ إليه في بطش، وأغلظ له القول في مهانة وغطرسة، وزيد يُجيبه إجابة مسكنة تزيد من غضبه وتؤجــج الضغينة في فؤاده، ثــم زاد فاتهمه بإحراز مال كثيــر عن طريق خالد القســري، وواجهه بخالدٍ وكان في محبسه، فأنكر الرجلان في تصميم حاسم ما ادعاه يوســف.. فما ازداد إلا لجاجاً وعتواً في طغيانه.. وشاء زيد أن يضع حداً لهذا الوالي المتهور فرحل إلى دمشــق ليطلع هشــاماً على ما يقوم به من إرهاب شــينع.. وكان زيد يظن أن هشــاماً سيســتمع إليه كصاحب ظلامة ينتصر لنفسه بعد اعتداء غاشم!! ولا ندري لماذا نسي هذا الألمعي الحصيف أنه يســتجير من الرمضاء بالنار، وأن يوسف يستمد جبروته من طغيان هشــام وعتوه!! لعلّه عرف ذلك عن يقين! ولكنه أراد أن يقنع شــيعته بالكوفة وغيرها من مدن الإسلام بدليل ملموس على فساد الحاكم واعتســافه! يأتيهم به عن مشافهة ومشاهدة فلا يقبل طعناً لطاعن أو تقولاً لمحتال...

ظل زيد ممنوعاً أمام قصر الخلافة بدمشــق محجوباً فلا يؤذن له في المثول، وهو يرى بعينيه وفود المرائين ومواكب المتزلفين يفــدون ويروحون دون حجــاب موصد، أو رتاج يقوم! حتى إذا ألحف في الطلب جاءه الإذن المتمنع فدخل ليشــهد أمير المؤمنين جهــم الوجه باديَ الغضــب، متطاير



الشـــررر، يقول له في غطرســة: لقد خدعتك نفسك يا زيد، أنت الذي تنازعك نفسك بالخلافة وأنت ابن أُمة!!

ما هــذه المواجهــة الصاخبــة؟! لو كان الــذي يخاطبه الخليفة فرداً عادياً لارتاع فــي موقعه، وطارت الكلمات من لسانه فلا يجد ما يقوَل، ولكن زيداً الرصين الفصيح ينظر في حزم، ويقول في رباطة جأشٍ وقوةٍ وإيمان:

«اسمعْ يا هشــام إنه ليس أحدٌ أولى بالله ولا أرفع درجة عنه من نبي بعثه للناس!! وقد كان إســماعيل بن إبراهم ابن أُمة وأخوه ابن حرة صريحــة!! فاختاره الله وأخرج من ذريته خير البشــر، وما على أحد إذا كان جده رسول الله ﷺ وأبوه علي بن أبي طالــب أن تكون أمة أمة من الســند أو من أي مكان!!»

فأخذ هشــام بما ســمع من المنطق المفحم وما قدر أن يجيب... وظلَّ حائراً يرمق جالســيه حتى إذا اشتد به الحنق صاح في غضب: اخرج، اخرج!! فابتســم زيد في استخفاف وقال: «سأخرج ثم لا أكون إلا حيث تكره وتضيق!!»

وقد أنجز زيد ما قال فارتحل إلى الكوفة لينادي بالثورة ويدعو الناس إلى مبايعته على الجهاد، وأعلن لهم خطته في ردّ المظالم ونصرة الحق وقسمة الفيء بين أهله على السواء

والفصيحة لله في السـر والعلانية فبايعه خمسة عشر ألفاً من الكوفة ثم انضم إليهم نفر كثير من واسـط المدن المجاورة ثم بلغ المبايعون أربعين ألفاً!! وتخرج الموقف في دمشـق فباتت على شر عظيم!!

كان العقلاء من آل بيت رسـول الله لا يثقـون في أهل الكوفة مثقال ذرة، فقاموا بنصيحتهم لزيد، وأخذوا يجادلون بمنطقهم المتحفظ، وهـو يرد عليهم في ثقـة وإيمان، وقد قال له داود بن علي بن عبد الله بن العباس في بعض نقاشه: يا ابن العم إن هؤلاء يغرونك من نفسك، وقد خذلوا من كان أعز عليهم منك خذلوا جـدك علي بن أبي طالب حتى قتل، وخذلوا جدك الحسـين حتى استهشد، وقد حلفوا لهما أوثق الإيمان كبعض ما حلفوا لك فأين تكون!!

فقال زيد: لقـد كان معاوية يقاتل بدهائـه ويزيد بدافع بقوتـه!! والآن لا دهاء ولا تماسـك فانسـحب داود ولم ينطق!

وجاء سـلمة بن كهيل فقال لزيد: رحمك الله كم بايعك من هؤلاء؟ فقال أربعون ألفاً، فقال سـلمة: وكم بايع جدك الحسـين؟ فقال زيد: ثمانون ألفـاً، فقال سـلمة: وكم بقي معه؟ فقال زيد: ثلاثمائة فقط!! فقال سلمة في أسف وحيرة:



واعجبا أيبقى معك أكثر ممن بقي مع الحسين فلم يصغ زيد إليه!! وواصل العمل دون مبالاة.

وجاء شيعي مخلص من خاصته، فقال في أدب: يا ابن رسول الله لم ترد على داود بن علي وسلمة بن كهيل رداً شافياً فما قولك، وقد جادلاك!

فابتسم زيد في مرارة وقال: والله إني لأعلم أن أهل الكوفة لا يصدقون في لقاء!! ولكن العيش في كنف المذلة دناءة وعار، وقد شاهدت من طغيان هشام وجبروته ما حبب إلى الاستشهاد في سبيل الحق، حتى يقول الناس: لقد أنف قوم من الإذعان للطغيان فلقوا الله شهداء أبرياء!!

فأطرق الشيعي معجباً وقال في إكبارٍ بالغٍ: انهض لما تريد جعلني الله فداءك وسأنشط في الدعوة إليك عن يقين وإيمان.

كانت الجموع تتزاحم حوال راية زيد، فأنصاره يتزايدون كل يوم ويبدون من الحمية والغيرة ما لا يشك أحد معه في نجاح الثورة، وغلبة الناقمين، إلا أن ذوي الحنكة ممن خبروا رجال الكوفة يرون وراء الستور فتوقاً توشك أن تتسع فتكشف عن بلاء محدق وشر مبيد!

وقد عقد هشام مجلس مشورته بدمشق لينقذ سلطانه مما يتهدده من أخطار!! نعلم أن المال معجزة الإنقاذ، وباب

النجاة، فأخذ يسوقه على الإبل في قوافل متتابعة لتنثره هناك في أرباض الكوفة وفوق مشارف العراق، ثم بالغ في الخديعة فاستمال فريقاً من ذوي الأطماع، وأمرهم أن يسألوا زيداً بن علي عن أبي بكر وعمر ليجيب بما يوقع الشقاق في رهطه فينقسمون عليه وتضعف ريحه فلا يجد ظهيراً يعين!!

لقد نشط زيد بجماعته إلى القتال، وسار إلى الحومة الحمراء بجنان ثابت، ونفسٍ متوقدةٍ فوجد نفراً ممن بايعوه، يعترضون طريقه ويسألون:

ما قولك رحمك الله في أبي بكر وعمر!

فقال في سرعة بادهة: غفر الله لهما ما سمعت أحداً من أهل بيتي تبرأ منهما وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً.

فقالوا: فلم تطالب إذن بدم أهل البيت؟

فأجاب في ثقة: إن أشد ما أقول فيمن ذكرتم أننا كنا أحق بهذا الأمر ولكن القوم استأثروا علينا به ودفعونا عنه وقد عدلوا وعملوا بالسُّنَّة والكتاب.

فقالوا في خبث: ولم تقاتل الأمويين إذن؟

فقلب زيد كفاً على كف وقال يا سبحان الله: أبو بكر وعمر عادلان طاهران وهؤلاء ظلمة آثمون، فأين الأرض من السماء؟!

فانقضوا من حوله متذمرين، وقد أشاعوا الفوضى ومالوا إلى الفتنــة والإرجاف، ولكن زيداً لــم يتراجع فواجه بالقلة القليلــة ممن ثبت معه علــى الحق جيوش الدولة الباطشــة ذات الحشــد الكثير، وتلاحقت حوله نجــدات بني أمية من الشرق والغرب فما ضعف أو اســتكان بل واجه السيف في مآزق حرجة تمت له فيها السيطرة والإنتصار، لولا أن الرماة من أعدائه قد عمدوا إلى الســهام، وليس في ملئه رامٍ واحدٍ يدفع النصال بالنصال، فاتجه إلى قلبه سهم صادف منه مقتلاً أليماً... فلقي ربه شامخ الرأس موفور الكرامة، وتفرق أتباعه حائرين جزعين..

وجلس هشام يتحدث عن هزيمة غريمه!! منتشياً فخوراً بما تم لجيوشــه من الظفر الباهر، والتفوق الحميد ثم سأل عن جثة الشــهيد الصريع فعــرف أنها أدرجت فــي التراب فأمر أن تصلب على مرتفع بالهواء ليطوف الأنصار آســفين متأوهين ويرمقها الأعداء فرحين شامتين!!

وارتقى البطل الشهيد إلى الأوج ميتاً!! فكان لواءً ناطقاً بالثأر يستنهض الأباة ويوقظ الغافلين.

○○○



مصرع شاعر

الوقت أصيل، والنسـيم يهبّ ملاطفاً الوجوه في مجلس هشام بن عبد الملك بقصر الخلافة، وقد جلس الناس صفوفاً بين يديه، ووفد إليه الشـعراء من مختلف العواصم ينشدون مدائحهـم، ويبالغون فـي ثنائهم العريض، وأميـر المؤمنين يسمع مبتسـماً مزهوّاً، ثم يعقب على كل شاعر بما يراه في شعره ملتمسـاً جانب الجودة، ومتغاضياً عما وقع فيه الشاعر من هفوات!! وجلساؤه طربون، يظهرون الإعجاب، ويدّعون الفهم والتبصر، فإذا استحسن الخليفة معنى أيدوه وبالغوا في تقريظه، حتى تحيّر هشام لا يدري أيستمع ثناء الشاعرين في القصائد أم إلى مادحي نقده، ومؤيدي رأيه من الجالسـين!! وقد أحـسّ بموجة من الغرور تسـري في كيانـه فتُرنح من أعطافه إذ تخيّل أن جميع ما يسـمعه من الإطراء حق صريح لا يبلغ الباطل في كثير أو قليل، فما فرغ الشعراء من الإنشاد حتى التفت إلى جلسائه يقول:

إن الشعراء لسان الدولة الناطق، وترجمانها الصادق!! وقد اطمأنت إلى رضا الرعية وسلامة الدولة حين سمعت القوم يبلغونني في قصائدهم الضافية حبّ الأُمة وطاعة العامة!! ولا عجب فقد خالطوا الناس وقرؤوا مشاعرهم وصوّروا نوازعهم فيما ينظمون من الكلام، وأنا لا أجيز الشاعر بعطائي الجزيل لأنه مدح فأسهب بل لأنه رسم الصورة التي رآها بعينيه فنقلها عن معاشريه من القبائل والبطون!! فقرّب لنا النازح، وأدنى البعيد.

قال مسلمة بن عبدالملك شقيق أمير المؤمنين: لقد صدق الخليفة في حديثه عن الشعر وتقديره للشعراء، وقد رأيت والدي عبدالملك رحمه الله يجلس إليهم ساعات مديدة فيطارحهم القول ويعارضهم الرأي وسمعته يروي عن كل شاعر سمع به! وله عند كل بيت وقفة وفي كل معنى رأي!! وأعتقد أن الخليفة حفظه الله قد نزع عن قوس أبيه حين قدر رسالة الشعر، فتفهم القصائد وأجاز الشعراء...

فابتسم هشام في زهوٍ، وقال: لقد أثلج صدري أن جميع من يؤبه لهم من الشعراء في أصقاع الدولة العربية قد تدافعوا إلى تسجيل مكارم أُميّة! وتخليد مآثر بني مروان!! ولا أعرف شاعراً شهيراً وقف منهم موقف القادح البغيض إلّا ما ترامى إلينا من

شذاذ الخوارج وفسدة الأعراب، ولو شئت أن أستأصل شأفتهم في الكهوف والمغاور بين التلال والوهاد لفعلت، ولكني أترك كل قائل يقـول: والحق حتـى لا تعصف بـه الأراجيف!! فإن عقبة بن سـعيد بن العاص على أذن هشـام! وقال هامساً، لقد تذكرت شـاعراً بالكوفة أسـاء القول، وبالغ في الإسفاف، ولا أرى أن يسـكت عنه أمير المؤمنين، فله من المعجبين هناك من يحفظون قبائحه ويرون أهاجيه!! وللحلم حد لا يتعدّاه.

فتضاحك هشام وقال في استهتار، قلتُ لك إني لا أعباء بشذاذ الخوارج، وفدة الأعراب فدعهم وما يقولون!

فواصل عنبسة همسه إذ قال: ليس الشاعر خارجياً، ولكنه شـيعي متعصب!! وهو فقيـه ضليع يحفظ القـرآن ويروي الحديث، ويسوق منهما أدلة قاطعة على ظلم الدولة ويجمع أهل الكوفة على محبة آل أبي تراب!!

فقطّب هشام جبينه كالمتبرم وقال هامساً ـ يشير في خفاء إلى الحاضرين ـ لـي معك عنه حديـث إذا انصرف القوم، فانتظر معي إذا استأذن الناس!!

وتحوّل الخليفة إلى جلسـائه يطارحهم القول ويتبسـط معهم فيما يخوضون فيه حتى انصرفوا أرسـالاً مستأذنين!! وخلا هشام إلى عنبسة يستوضحه الحديث.



قال هشام: أعد عليّ نبأ هذا الشيعي الكوفي وأسمعني بعض ما قال من الكلام.

فقال عنبسة: علم الله لقد جاءتني الأنباء عنه محرجة أسيفة، فانتهزت الفرصة اليوم، لأبلغ أمير المؤمنين بعض ما وقعت عليه!! والشاعر شيعي من بني أسد يدعى الكميت!! وله قصائد ذائعة تعرف بالهاشميات ينشدها في أرباض الكوفة فتترنم بها السهول والهضاب، وتسير بذكرها الركبان!! فردّ هشام في غضب ساخط: وماذا يبغي هذا الأحمق من بني هاشم! وليس فيهم من يجزل العطاء كما نجزل، ولو كان ذا كياسة ودراية لوفد إلينا مع الوافدين! فأبلغناه بعض ما يطمح إليه ذوو نحلته من المدّاح!!

فردّ عنبسة يقول في صراحة ناصحة: يا أمير المؤمنين إن الرجل كما أرى صادق العاطفة مخلص العقيدة لا يرجو بشعره ثراء يتدفق أو حظوة تنال، وقد فخر به آل علي وجمعوا له من مال الرجل وحليّ النساء قدراً ثميناً لو ادخره لكان ثروة هائلة تسعده وتحييه! ولكنه رفض جميع ما تقدموا به في إباء، وقال ما معناه: لم أمدحكم لدينا أنالها، ولكني أرجو مثوبة الله فلا أكدرها بعطاء إنسان! وإني لأرجو

من أحدكم ثوباً واحداً ممــا مس جلده لأحمله معي، فيكون ذخيرتي في القبر، وشفيعي حين ألقى الله!!

فاحمرّ وجه هشام حتى صار جمارة تتوقد، وقال لعنبسة: ألا تســمعني بعض ما قال. فقال ابن سعيد في تأدب سأنشد على كره مني إن أذن أمير المؤمنين، فقد حفظت هذا الشعر المأفون عن كراهيــة، وإن له لذعاً على الأكبــاد وغمزاً في القلوب.

فعجل هشام يقول في سرعة: لا عليك، وأسرع بالإنشاد فأخذ عنبسة يروي:

ألا هَــل عَمٍّ في رَأيــه مُتَأمِلُ	وَهَل مُدبرٌ بَعدَ الإسَاءَةِ مُقبلُ
وهَل أمةٌ مُستيقظونَ لرشدِهِم	فيكشِفُ عنه النّعسَةَ المتُزَمّلُ
كلامُ النّبيّيــنَ الهُــدَاةِ كَلامُنا	وأفعالَ أهلِ الجاهليّةِ نَفعَلُ
رَضِينَا بدُنيا لا نُرِيــدُ فِرَاقَها	على أنّنَا فيها نَمُوتُ وَنُقتَلُ
فَتلك ملوكُ السَوءِ قد طالَ ملكُهم	فحَتّامَ حَتّــامَ العَنَاءُ المُطَوّلُ
رَضُوا بِفِعَالِ السَوءِ في أهلِ دينِهم	فقد أيتَمُوا طوراً عِداءً وأثكَلُوا
تَحِلُّ دِماءُ المســلمينَ لَدَيهُم	وَيَحرُمُ طَلعُ النّخلةِ المُتَهَدّلُ
وَمِن عِجَبٍ لم أَقضِهِ أنّ خَيلَهُ	لأَجوَافها تَحتَ العَجَاجَةِ أزمَلُ
يُحَلِّئنَ عن ماءِ الفُراتِ وظِلّه	حُسَــيناً ولم يُشــهَر عَلَيهِنّ
وغَابَ نَبيُّ اللهِ عَنهُــم وَفَقدُهُ	على النّاسِ رُزءٌ ما هُنَاكَ مُجَلّلُ

يُصيبُ به الرّامُونَ عن قَوسِ غَيرِهِم فَيَا آخِراً سَدّى له الغَيّ أوّلُ
فَلَم أرَ مخــذولاً أجلّ مصيبة وأوجب منه نصرة حين انخذل
إذا شمرت فيه الأسنة كبرت غوانهمو من كل صوب وهلّلوا

فتضرم وجه الخليفة من الغيظ حتى أشـفق عليه عنبسة، فقطع الإنشــاد، وجعل ينظــر إليه فيراه يزفر زفـرات ملتهبة حانقة حتى إذا سكن غضبه بعض الشيء، قال في غيظ وأين إلى الكوفة خالد القســري!! لعمري لأورته حتفه إذا سكت عن هذا الكلب العقور!!

فقال عنبسة في تخابث: لقد علمتُ من كثيرين أن خالد القســري صديق حميم للكميت، وأنه يؤاكله ويشاربه ويأخذ هداياه!!

فصاح هشام: أو متشيع يلي أمر النسا ويحكم باسم أمير المؤمنين!!

فتراجع عنبســة يقول: ليس كل ما يقال صحيحاً يا أمير المؤمنين!! فأنا لا أســتطيع أن أكشــف عن ســويداء خالد، فأعرف ما تســكن من حبٍّ أو بغضٍ، ولكنــي آخذ عليه أن سمح للكميت بإذاعة هذه الأراجيف، فتناقلها الناس!!

فقال هشــام في تضايقٍ مريرٍ: تأخذ عليه فقط، لا بد أن أذيقه الحتوف مــع صديقه الرنيم... ثم ضــرب كفاً بكف،



وقال منفعلاً عجباً للناس!! ألم يتطوع شاعر مأجور ممن تجزل إليه العطاء بمعارضة هذا النباح!!

فردّ عنبسة يقول: علمت يا أمير المؤمنين أن الكميت معارض لا يغلب، فهو ذو ثقافة واسعة في العلوم والأنساب!! وله لسان حاد يتناول به الصغير فيضخم ويعظم، حتى إن الكثيرين يجتمعون في حلقات دروسه ليروا قدرته على الجدل، ومعجزته في الإفصاح!! وإني لأعرف أن الفرزدق على علو سنه وجلالة قدره، ذهب إليه الكميت بالكوفة - وهو صبي ناشئ - فعرض عليه شعره، فأعجب به، فاحتال الفرزدق وسأله أمام الناس: أيسرك يا كميت أني أبوك فردّ الغلام في استهزاء. والله ما يسرني أن تكون أبي، ولكن يسرني أن تكون أمي فتضاحك الحاضرون. فعضّ هشام بأسنانه على شفتيه وسأل: أتعرّضَ هذا النابح إلى الخوارج أعداء علي! أم أكتفي برهطنا الأكرم من الأمويين!!

فقال عنبسة في جدٍّ: إن الشاعر كما أعرف صاحب رأي مستقل وتفكير خاص فهو لا يندفع مع الشيعة في كراهية بعض الصحابة، والتنديد بهم بل يستقل برأي ذاتي، فقد سئل مرات عن أبي بكر وعمر، فأثنى عليهما ثناء مستطاباً! لا كما يصنع رهطه الغالون!! والغريب أنه لم يتعرض



للخوارج في شيء بل إنه صديق حميم للكثير من شعرائهم، فأنا أعلم أن الطرماح خليله وسميره!! يتخالطان ويتناجيان! وقد سمع قائلاً يقول:

إذا قبضت نفس الطرماح أخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد

فقال الكميت أي والله وعنان الخطابة والرواية!

فصاح هشام غريب لعمري ما تقول! شيعي متعصب يمدح أبا بكر وعمر، ويصادق أعداء أبي تراب من شعراء الخوارج!!

فقال عنبسة في دهاء ليست صداقة الكميت للخوارج عجيبة يا مولاي فهم والشيعة أعداؤنا جميعاً، وقد ألفت قلوبهم تلك الخصومة الناغرة فتناسوا ما بينهم من أحقاد!!

فهزَّ هشامُ رأسه، وقال في غيظ: سأكتب الآن إلى خالد أن يأتيني مع الكميت بعد أن يخزيه أمام شيعته، فإذا قدما عليّ فستعلم ما أنتقم به من كل وغد جريء!! ثم استأذن عنبسة، فخرج وترك هشاماً تموج به شجونه موجاً مواراً فلا يستقيم إلى هدوء.



كان خالد بن عبد الله القسري والي العراق جالساً في قصر إمارته بالكوفة ذات صباح، فجاءه خطاب هشام بالقبض

على الكميت الأسدي شاعر الشيعة مع قطع لسانه أمام رواته ومؤيديه... ثم الحضور به سـريعاً إلى دمشق، فقرأ الخطاب في حيرة، ودهش مأخـوذ الأيدي، ماذا يصنع بصاحبه!! غير أنه ـ مـع ذلك ـ أمير حـازم يحرص على مسـتقبله، ويرى التهاون في مطلب الخليفة الطاغية جريمة فادحة تطيح به بين صباح ومساء، فأصدر أمره السـريع باعتقال الشاعر، وزجّ به في أعماق السجون ردحاً من الزمن حتى ينبسط الوقت قليلاً أمامه للتفكير الحصيف!! ونظر الشـاعر فوجد نفسـه مكبّلاً بالأصفاد، يتخبط في ظلام مطبق لا يَلُوح في غياهبه شـعاع من رجاء!! فتزلف إلى السـجّان حتى أنفذ رسالة باكية إلى صديق أبان بن الوليد، وكان أميراً على واسط وهو من الحيلة والدهاء بحيث تنفرج له المضايق المتلاحمة عن طريق متسع ذي شعب وانحاء!! فحين وصلت الرسـالة إليه أدرك محنة صديقه وتسـربل ظلام الليل فعجّل بالحضور مستخفياً إلى الكوفة، ثـم طرق دار الكميت فوجـد زوجته تذرف الدموع وقد أحـاط بها اليـأس فما تعرف سـبيلاً للأمـل في نجاة الكميت الزوج المنكود، فأخذ يرفـه عنه بمختلف الأعاليل ثم قال في حزم بالغ: إن الكميت مهدد بأسـوء المصير ولن ينقذه سـواك!! فنظـرت الزوجة مدهوشـة! وصاحت كيف أستطيع إنقاذه وقد حالت دون ذلك الأسباب.

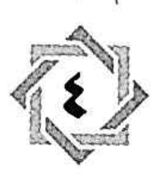
فقال إبان في دهاء: لا يحتـاج الأمر منك إلى غير ثبات القلب وشـدة الإخلاص، فنظرت إليه كاللائمة وكأنها تقول: وهل يشـك الأمير في إخلاص زوجة لـزوجٍ ترى فيه معقد الآمال ومناط الرجاء!! ونساقيه كؤوس المودة والولاء!!

فأدرك إبان ما يختلج في خاطرها من أفكار وعجل فقال: تستطيعين أن تذهبي إليه بملاءتك السوداء في سجنه البهيم، فإذا قدمت على السـجّان تلطفـي منه حتـى يدخلك إليه، وحينئذٍ تعرضين على الكميت أن يرتدي ملاءتك النسـائية، ويخرج بها أمام السـجّان!! فإذا انفرجت أمامه الطريق ركب راحلـةً أعددتُها لذلك، ثم اتجه إلى مغـاور الصحراء متنقلاً بين القبائل في تسـتر واختفاء حتى يجيء دمشق، فيستشفع إلى الخليفة بمسـلمة بن عبد الملك وإنـي لآمل أن يتحقق رجاؤه في مسلمة فيزول خوفه! وتعود إليه الدعة والاستقرار.

قالـت الزوجة في تسـاؤل: وماذا أصنع حيـن يأخذني السجّان إلى خالد!! وقد ساعدتُ على هروبه بحيلة نكراء!! فهز إبان رأسه في اسـتخفاف وقال: لن ينتقم من امرأة على كل حال، فهو يحـاذر أن يفعل، فتكون جريمته سـبة الدهر وفضيحة الأجيال!! ففكـرت الزوجة ملياً ثـم اطمأنت إلى الموافقة ونهضت إلى ملابسها الفضفاضة وعجلت بارتدائها

وأخذت طريقها إلى السجن ومن ورائها إبان بما أعدّ من راحلة.. ثم مثلت الزوجة المخلصة دورها الدقيق كما رسمهُ إبان عن مهارة وإحكام!! حتى إذا خرج الشاعر من محبسه تلقفه صاحبه فأهداه الراحلة وتركه في مهب الأقدار تصنع به ما تريد!!

وطلع الصباح فاستدعى خالد أسيره، ففوجئ بامرأته دونه!! فأرغى على السجّان وأزبد وتهدده بأسوء ضروب التنكيل.. ثم عمد إلى الزوجة فحاول أن ينتهرها على ما اقترفت من جريمة آثمة. ولكنه طوى الشفاء، على غيظٍ محرقٍ، وأسلمه رأسه إلى تفكير طويل يتبدر ما عسى أن يجيب به أمير المؤمنين.



بلغ الكميت دمشق كما أشير عليه أن يتجه، فقصد مسلمة بن عبد الملك وكشف له النقاب عن سره، ورجاه أن يشفع له عند أخيه، ولكن الأمير صارحه في صدق مؤثر باستعصاء ذلك عليه، فهشام حقود لجوج يركب رأسه ولا ينظر في شفاعة أخٍ أو حبيبٍ!! فاضطرب الشاعر وسأل عما عسى أن يأتيه فأطرق مسلمة قليلاً ثم قال: لقد مات

معاوية بن هشـــام منذ زمن قريب وجزع عليه أمير المؤمنين جزعاً فاق كل حــدّ حتى خفنا عليه العاقبة، فــإذا كان الليل فاضرب رواقك على قبره وسأبعث إليك ببقية ليكونوا معك في الــرواق فإذا دعا بــك الخليفة تقدمت إليهــم أن يربطوا ثيابهــم بثيابك ويقولوا هذا لاجئ اســتجار بغير أبينا ونحن أحق من أجاره!! وإذ ذاك لا يجد مفراً من الغفران.

أشــرق الصباح فتطلع هشــام من قصره كعادته إلى القبر فوجد أشــباحاً تلوح فقال ما هذا؟ فقالوا لعله مســتجير بقبر ولدك الحبيب! فبكى قليلاً ثم قال في لوعة عفوت عنه إلّا أن يكون الكميت! فإنه لا جوار لكلــب نبّاح! فقيل إنه الكميت يا أمير المؤمنين فصاح الخليفة غاضباً مشــتطاً ليحضر أعنف إحضــار!! فلما دُعي إلى اللقــاء ربط الصبيــان ثيابهم بثيابه وبكوا واســتعبروا وصاحوا بأمير المؤمنين يــا جداه يا جداه هذا لاجئ استجار بقبر أبينا، وقد مات ومات حظه في الحياة فاجعله هبةً له ولنا، ولا تفضحنا فيمن استجار به، فتأثر هشام لبكاء أحفاده، وتراءت له صورة فقيده الأعز فبكى في أســى مفرط حتى كاد أن يُغمى عليه، ثم قال بعد أن تماسك: ويلك يا كميت من زيّن لك الغواية ودلاك في العماية! فقال الشاعر في انكسار: الذي أخرج أبانا آدم من الجنة فنسي ولم نجد له عزماً.

فقال له في تلدد حقود أأنت القائل:

فـــقـــل لبـنـي أُمية حيث حلوا وإن خـــفـــت المهند والقـطيعا
أجـــاع الله من أشبعـــتمــــوه وأشـــبع من بجــوركمو أجــيعــا
بمرضى السياســة هاشــمي يكــون حيــا لأمتــه ربيعا

فقال الكميــت لا تثريب يا أميــر المؤمنين فقد محوت قولي الكاذب بقولي الصادق:

أورثتـــه الحصـــان أم هشـــام حســـبا ثاقبا ووجهاً نضيراً
وكســـاه أبو الخلائــف مروا ن ســـني المكارم المأثورا
لم تجهّــم له البطــاح ولكن وجدتهــا لــه معانــاً ودوراً

فتربع الخليفة جالســاً ثم نظر إلى أحفــاده فرحمهم في موقفهم الجليــل وأعلن رضاه الظاهري عن الشــاعر فأطلقه وفي صدره بلابل ثائرات!!

ســـار الشـــاعر إلى الكوفة وقد خدع بما شاهد من عفو هشـــام!! ونســـي أن الخليفة يكنّ له من الضغينـــة ما يهدده بالكارث الشنيع، وقد نفعه استشـــفاعه بأحفاده فزحزح أجله قليلاً ولكنه لم يطفئ نواغر دامية في قلب هشام تتألب عليه في خلواته فيتحرق منها على مثل الجمر المشبوب!!

وقد شـــاء أن يتخلص نهائياً من حقوده الساهدة وأضغانه المشـــتعلة فعزل خالد القســـري عن العراق، ودبّر له مكيدة

أطاحت به على يد واليه الجديد يوسف بن عمر الثقفي!! إذ بعث به من دمشق إلى إمارة الكوفة مزوّداً بتعاليمه المنتقمة، ومنفذاً أمره في استئصال شـأفة خالد والكميت معاً، منتحلاً لذلك شتى الأسباب دون تأخير..

وجاء يوسف فتتبع شـيعة عليّ بما يستفظع من الشنائع الرهيبة، فلمح الكميت بوارق شـر يتهـدده! ولكن ثقته في عفو هشـام قد ثبتت قليلاً من قلقه المـوزع وضلاله الحائر ورأى أن يتزلف إلـى الوالي الجديد فأخـذ يمدحه بقصائد يمليهـا الخوف وتدفع إليهـا الرغبة في السـلامة والنجاة!! ويوسف لغز مبهم يحاول الشاعر المتفرس أن يصل إلى حلّه فلا يسـتطيع فالرجل جامد الملامح، أعجم النظرة لا تنطق أساريره بما يكشف خواطره أو يبدي صفحة قلبه!!

وظل الشـاعر بين الخوف والأمن، والأمل والرجاء حتى وفد ذات صباح على الأمير، فأسمعه بعض مدائحه فيـه، وانتظـر أن يجد ابتسـامة مريحة أو يسـمع كلمة سـارّة!! ولكنه فوجئ بانقضاض بعـض الحراس عليه وتمزيق جسـده بالحراب!! ويوسف سـاكن هادئ كأن الأمر لا يعنيه، وأصبح الناس يقولـون لقد هجم الرعاع من اليمامية على الشـاعر فتكاً بالحراب وطعناً بالرماح

لهجائه سيدهم في بعض ما أسلف، فنالوا حياته دون أن يأمرهم بذلك يوسف!!

فيــردّ عليهــم العقــلاء كيف يصــدر ذلك فــي حضرة يوسف بن عمر طاغية العراق إلّا إذا أشــار عليهم بما يريد، ثم لماذا لا يؤاخذ ذوي الجزيرة بما صنعوا من فحشاء!! وقد شــاهد عن عيان ورأي عن يقين! ويســأل قوم آخرون وهل يجرؤ يوسف على قتل الكميت وقد عفا عنه أمير المؤمنين!!

فيردّ عليهم العقــلاء ومَن أدراكم أن أميــر المؤمنين قد عفا عنه من قلبه وضرب صفحاً عن هاشــمياته وقد ســارت في العرب مسير الريح! وأين الوالي الذي يستطيع دون إيعاز قوي أن يطيح برجل، ضمن عفو الخلافة، وعاد من دمشــق بعد أن أسكن الثائرة وطفأ اللهيب!!

ثم يصمت القوم في أسفٍ أليم.

❂ ❂ ❂



طفيلي يلهو

أشرقت الشمس وضيئة زاهية، ونظر الوليد بن يزيد إلى السماء فوجدها صافية رائعة لا تمر بها غيمة تؤذن بعارض! فدعا رفاقه من ندماء الشراب، وأصدقاء الطرب والبهجة، وأمر أن يسيروا جميعاً إلى منزلهم الأنيق في غوطة دمشق، حيث يتجلى الربيع الناضر في أجمل زينته، يرف الشـــجر المياس محملاً بأشهى الثمار، ويهب النسيم السكران منتشياً بسلافة الزهور، وتترقرق الجداول شاكية مداعبات الهواء ومباغتات الريح!! وقد صفت الأرائك مكسوة بالمخلم الناعم، ومطعمة بفصــوص الجواهر والياقــوت!! وأخذ المطربــون أماكنهم الصادحة، ليبعثوا هواتف الأشــجان، ويثيروا كوامن الوجدان بما ينشدون، ويلحنون، وإنهم لفي أنســهم الناعم، ولهوهم الأنيس، وقــد تحلق حرس الخلافة حــول المجلس الحافل يمنع شذاذ الأفاق من الســابلة، وغوغاء المارة من الجائلين،

إذ قدم شـيخ زري الهيئـة مضطرب الخلقة، قـذر الملبس، وطلب أن يستأذن له على أمير المؤمنين.

قال صاحب الحرس: ثكلتك أُمك يا أشعب، أمثلك في هوان قدره، وقبح منظره، ورثاثة ثوبـة، يطمع أن يصل إلى مجلس الخليفة، وقد حفل بكل زاهـر الطلعة، رائع الرونق من شباب أُمية، وغطارفة مروان!

فتبسم أشعب في استخفاف وقال: علم الله ما كنت ذا رغبة في رؤية الغوطة اليوم لولا أن أمير المؤمنين حفظه الله قد أرسل من يدعوني إلى هذا المجلس في الصباح، ولولا طاعة الخليفة ما تركت المنزل، وأنا كما ترى ظاهر الإعياء متضح السقام!!

فهزَّ صاحب الحرس رأسـه وقال فـي تخابث: أتريد أن تخدعني عن تطفلك يا أشـعب بزخرف من القول حتى آتي أميـر المؤمنين فأعلمه بمقدمك، وقد لا تكون في حسـابه، فيأذن متفضلاً بدخولك، لتصبح سـخرية العابث، وضحكة الهازئين!! أظننته عرساً حافلاً لسوقي خامل من أفناء دمشق، ونسيت عظمة الخلافة، وجلال الوليد!

فقال أشـعب في جدٍّ حـازمٍ: لقد صارحتـك بالحقيقة، وأعذرتك إذ أخبرتك، فإذا حاسـبني أميـر المؤمنين فعليك الملامة والتثريب!

سـكت صاحب الحرس كالمفكر أولاً... ثم ذهب بين التصديق والتكذيـب إلى مجلس الوليد، وقـال في انحناءة مهذبة. أشعب يطلب المثول يا أمير المؤمنين.

فتضاحك القوم عابثين، ووقف شـاب من الندماء ليقول للخليفة: ناشـدتك الله إلا صرفت عنا هذا الشـره المبطان!! فليس اليوم للسفلة المتبطلين!!

فضحك الوليد في استهتار، وأخذ كأساً مترعة فصبها مرة واحدة في حلقة، وقال مخاطباً نديمه في اسـتخفاف مفرط، تعوده منه خلطاؤه:

كلّنا شرهٌ مبطان لا أشعب وحده، نعبد الطعام والشراب، ونحسب لهما ألف حساب!!

فردّ نديم ينزلف: معاذ الله أن يكون أمير المؤمنين شرهاً مبطاناً! وهو غصن باسـق من دوحة مروان! ونبعة قوية من أرومة أمية! وما في أجداده وآبائه إلا عف مترفع! لا يخضع لشهوة بطن أو ينحدر إلى نهمة أمعاء.

فضحك الوليد وتمايل.. ثم نظر إلى صاحبه في استهزاء، وبدأ حديثه كالساخر: ما هذا الذي تقول! أخرجتَ معي إلى الغوطة للمرح والصراحة أم للتكلف والرياء!! لسنا الآن في قصر الخلافة نسـتقبل الوفود ونقضي المراسيم! ولكنّنا في

خلوتنا المتحللة نرفعِ الهيبــة، وتنطق بالصريح كما يجيء!! من قال إن آبائي من أُمية قد عفوا عن الطعام والشراب ولديَّ من نوادرهم الأعاجيب! ثم التفت إلى جليســه الأيمن وقال في سخرية: أتدري لماذا يصنع الصائمون الكنافة في دمشق، لقــد كان معاوية بن أبي ســفيان لا يحتمــل رمضان! فأخذ يبحث عن غذاءٍ دسمٍ يلصق أحشائه فترة طويلة! فهداه بعض الزائرين من القسطنطينية إلى الكنافة. فصنعها مثقلة بالسمن واللوز والســكر! وتناقلهــا عنه الناس فــي كل مكان، حتى اشتهر بها رمضان في ربوع الأقطار!!

فتبسم القوم في أدبٍ، ولم ينطقوا بشيءٍ إجلالاً لمعاوية وللوليد!!

غير أن الخليفة يدور ببصره، فيرى الاحتشــام والتحرج، فيصيح: ما لي أرى صمتاً متوحشــاً كأننا فــي معتبرة لا في حديقة!! ألم تعجبكم هذه النادرة! سأروي لكم غيرها... ثم تناول كأساً ثانية وصبّها في جوفه، وأخذ يقول:

أقبل رجل إلى ســليمان بن عبدالملك وهو يدابق ومعه ســلتان ملئتا ببيض وتين، فقال لرفقائه قشروا قشروا، وجعل يأكل بيضة بيضــة وتينة تنية حتى فرغ من الســلتين ثم أتوْهُ بقصعة مليئة مخا بســكر، فانكبّ عليهــا حتى مرض ومات

بعد أسبوع صريع الطعام!! ونظر الخليفة إلى ندمائه فلم يرَ من يضحك بل سمع قائلاً: يقول في أدبٍ: رحم الله سليمان بن عبدالملك أمير المؤمنين!!

فصاح الوليد تترحمون عليه أمامي! ولو بعدتُ قليلاً لهزئتم به! تبّاً لكم من منافقين، ثم تناول كأساً ثالثة فشربها دفعة واحدة، وقال: سأطيل احتشامكم، وأروي النادرة الثالثة!!

خرج هشام بن عبدالملك المتنزه ذات يوم فرأى راهباً يتعبد في بستان، فدخل علينا مفاجئاً، وأخذ الراهب يقدم إليه من فاكهة الحديقة ما يختار عادة للخلفاء! وهشام يأتي على كل شيء فما يدع! ثم قال للراهب: أتبيعني هذا البستان؟ فسكت الراهب ولم يُجب! فقال هشام: ويحك لِمَ لا تجيبُني! فقال الراهب: وددت لو مات الناس جميعاً غيرك يا أمير المؤمنين، فتعجب هشام وسأل: لماذا تودّ ذلك؟ فأجاب الراهب في ملاطفة: كيلا يشاركك أحد في هذه الثمار!!

ثم ضحك الوليد ضحكة عالية وتابع النظر إلى ندمائه فوجدهم يبتسمون ولا يتكلمون فجذب ثوب أحدهم وقال: بحياتي إلا عقّبت على ما أقول.

فتبســم الجليس في لطفٍ وقال: علمت أن الحجاج قد أكل أربعاً وثمانين لقمة فــي كل لقمة رغيف من خبز! وفي كل رغيف ملء كفه من السمك الشهي!!

فضحك الســامعون ســاخرين: وأخذوا يتنــدرون على الحجاج ويقذفونه بقوارص التهم ولواذع الشفائع!

فأطال الخليفة إليهم النظر وصاح: سحقاً لريائكم القبيح! أحين تركنا بنــي أُمية تضحكون وتتندرون!! ثم رفع رأســه لصاحب حرســه وقد أطــال وقوفه فلم يؤذن لــه منذ جاء ـ وقال: أدعُ أشعب ولا تبطئ! فليس أحد أفضل من أحد، كلنا شــره مبطان!! مضت لحظات وقدم الطفيلي الشيخ مبتسماً، يثب في سيره، ويميل بمنكبيه متظالماً، ليجذب إليه الأنظار، ثم مثل بين يدي الخليفة في ارتعاش متكلف ليضحكه!

فأحضر كرســياً من الخشــب وأجلســه عليه في وضع متقابل كي يشهدهُ الحاضرون!

وقال الوليد ســاخراً، تحدث إلينا يا أشعب، فأنت راوية اليوم، وليس لنا غير الاستماع!

فأخذ أشعب يتضاءل وينكمش في استكانة خادعة وقال في ذلة: أعــزك الله يا أمير المؤمنين، أنا جوعان ســغبان ولا يحسن حديث الخلفاء شيخ تتلوى أمعاؤه فما تستريح!!

فصاح الوليد سـائلاً في عبثٍ: وهبْك لـم تجدنا الآن! فأين كنت تتناول الطعام! فردّ أشعب في بديهة سريعة: كيف وقد رأيت بالأمس في منامي أنك سـتجلس اليوم، ورؤياي صادقة كرؤيا الأنبياء!!

فتضاحـك القوم في مـرح، وقال الخليفة مسـتهتراً: رؤياك كرؤيا الأنبياء يا أشـعب، لو كان الأمر كذلك، مـا تركت قراءة القرآن في المساجد، وأخذت تتبع الملاهي ليستهزئ بك الناس!

فأطرق أشـعب متصنعاً العبوس.. ثم رفع رأسـه وقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أترك القـرآن فأنا لا أزال أرتله صباح مساء.

فالتفت الخليفة إلى ندمائه وقال: شهدتم عليه، سأمتحنه الآن، فأرى مقدار ما يحفظ من السور والآيات.

ثم اتجه إلى أشعب وقال في جدٍ: أي سورة تعجبك في القرآن؟

فردّ أشعب متسـرعاً: المائدة يا أمير المؤمنين، فتجاهل الخليفة تعريض صاحبه وسـأل وأي آية تختار؟ فردّ أشعب دون إبطاء: ذرهم يأكلوا ويتمتعوا!!

فضحك السـامعون، وتابع الخليفة يسـأل ثـم ماذا من الآيات يا أشـعب؟ فقال: آتنا غداءنا، فقال الوليد قل غيرها

فردّ أشعب: كلوا من طيبات ما رزقناكم، فتطلع إليه الخليفة في جدٍ وصاح: اختر غير آيات الطعام! فقال أشعب على الفور: ادخلوها بسلام آمنين!!

فسأل الوليد أليس غيرها؟ فقال أشعب: وما هم منها بمخرجين، فنظر الخليفة إلى القوم وقال في ابتسام: حيّرتني بديهة هذا الخبيث!

فقال مستمع أديب: إن أشعب قد راجع القرآن بعناية ليلتقط منه ما يريد: فأجابته الآن مُعدّةٌ مهيَّأة! وليست من باب الارتجال!

فضحك أشعب وقال: صدقت يا هذا، لأني رأيت بالأمس في مقامي أنكم ستمتحنونني في القرآن فأخذت هذه الآيات!

فضحك القوم مسرورين! ونظر الوليد إلى المتكلم فرآه ساكتاً لا ينطق ولا يضحك! فقال له: لستُ كفوءاً لحوار أشعب! هذا أمير المتطفلين!

فرفع الشيخ إصبعه بطلب الإذن في تخوفٍ مضحكٍ ثم قال: لست أمير المتطفلين يا مولاي هناك مئات غيري ممن تبؤوا إمارة التطفل عن جهاد عظيم!

فزجره الخليفة قائلاً: صهٍ يا دجّال! فما نعرف من القوم أميراً سواك.



فهزّ أشـعب رأسـه هزة مضحكة.. وقال في احتيال إن التطفل لم ينشأ في لغة العرب إلا منتسباً إلى طفيل بن زلال الكوفي! أأكون أميراً عليه! واسمه أولى بالتقديم! قولوا إذن أمير الأشعبيين، فأكون الأمير!

فضحك الخليفة وقال لجلسائه: لحاه الله، لم يذهب بعقله الشراب، هو يتحدث بمنطق سديد ثم اتجه إلى أشعب يسأل: وما بلغ من تطفل صاحبك طفيل بن زلال؟

فتربّع الشيخ في مجلسه دون أن يخلع خُفَّهُ الرثة! فأثار عاصفة هازئة من الضحك ثم تصنع الوقار وقال متخذاً سمتَ الخطيب:

الحمد لله والصلاة والسـلام على رسـول الله، استمعوا عباد الله.

لقد كان طفيل بـن زلال أعرابياً من بني هلال، وكان إذا سمع أن قوماً لديهم دعوة أتاهم فأكل طعامهم دون استئذان، وقد أوصى ابنـه عبد الحميد في عِلّيهِ التـي مات بها، فقال له يا بني إذا دخلت عرسـاً فلا تتلفت تلفت المريب، وتخيّر المجلس اللائـق وإن كان العـرس كثير الزحـام، فمُرْ وانهَ وامضِ ولا تنظرْ في عيون الناس، ليظنّ أهل المرأة أنك من أهل الرجل، ويظن أهلُ الرجل أنك من أهل المرأة، وإذا كان

البواب غليظاً جافياً، فابدأ به مـرة وانههُ في غير تعنيف ولا إذلال!!

فتمايل القوم ضاحيكن، واستلقى الوليد على كرسيّه من الطرب، ثم قال في استهزاءٍ: وهل طبقت أنت هذه الوصية يا شيخ!

فهزَّ أشـعب رأسـه فـي تمايـل وقـال: إن النـاس يا أمير المؤمنين ماكـرون خادعون، وقد فطنـوا إلى ذلك فلم يَعُودوا يجهلون كل متطفـل محترف! وإني لأقابلهم بالحيلة والخداع لأبلـغ منهم بعض ما أريد فصـاح الوليد في ترنح أرني بعض خداعك أيها المحتال؟

فوقف أشـعب فـي مكانه وقـال: أنا جائع يـا مولاي! والجائع لا يتقن الحديث.

فزجـره الوليد جاداً ثـم قال في اسـتخفاف: هذا خداع عملي يا شـيخ! ونحن لا نريد أن تخدعنـا نحن ولكن أرنا كيف تخدع الناس!

فانكمش الشيخ في مكانه كالحذر الخائف وقال وهو يتصنع الاضطراب والفزع والقوم يضحكون في عبثٍ واستخفاف:

يا أميـر المؤمنين ـ دعا رجل من أهـل المدينة نفراً من خلانه إلى مأدبة حيتان وبينما هم يأكلون إذ توكلتُ على الله

ودخلت فقال أحدهم هامساً ـ وقد سمعته بمعونة الله وتوفيقه ـ إن من شأن أشعب أن يعمد إلى أجلّ الطعام فاجعلوا كبار هذه الحيتان في آنية بعيدة ويأكل معنا الصغار ففعلوا، ثم قدمت فقالوا: ما رأيك في الحيتان؟ قلت والله إن لي عليها لغضباً شديداً وحنقاً لأن أبي رحمه الله مات في البحر وأكلته الحيتان! فقالوا دونك وكُلْ ما تشاء لتأخذ بثأر أبيك فجلست ومددت يدي إلى حوتٍ صغيرٍ منها، ووضعته في أذني، واتجهتُ بنظري إلى الآنية ذات الحيتان الكبيرة، وقلت في سرعة واهتمام: أتدرون ما يقول لي هذا الحوت! فقالوا في تعجبٍ: لا ندري شيئاً، قلتُ يقول في إخلاص إنه لم يحضر موت أبي ولم يدركه لأن سنه تصغر عن ذلك وقال لي عليك بتلك الكبار في زاوية البيت لأنها أدركت أباك فأكلته! فضحك القوم وعلموا أني عرفت المكيدة وكشفتها عن طريق الاحتيال فضحك الوليد، وقال قصة طريفة دون جدال: لماذا لا تشتغل بالسياسية لتخادع الناس!

فردّ أشعب في أدبٍ: العفو يا أمير المؤمنين! إن السياسة فوق كل احتيال!

وجاء الخادم ومعه أطباق الفاكهة، فوضع أمام كل نديم طبقه الخاص، وحين سلّم إلى أشعب طبقه، أفرغه في ثوبه،

وستره بركبته، وقال في فزع: واذلّاه لقد أعطاني الطبق فارغاً يا أمير المؤمنين، فردّ الوليد ضاحكاً: سـلْ ركبتك يا أشعب فقد أكلت الطبق وخدعتك! إعطه غيره يا غلام فهرع أشعب ونزع الطبق متعجلاً وقال في اسـتكانة ومضحكة: نفذتُ أمرَ أمير المؤمنين.

ومضى القـوم يأكلون ومنهم من يقذف بالقشـرة في وجه أشعب، فيفتح فمه في حذقٍ ليلتقط ما يقذف! وقد بلغت مهارته في ذلك حدّاً رفّه عن الحاضرين، وأضحكهم سـروراً ونشوة! حتى قال الوليد لجلسـائه: ويحكم: كنتم تريدون أن تمنعوا عنا أشعب، ولو مُنع عنا وجهه اليوم لخسرنا الشيء الكثير!

فوقف أشـعب من مجلسـه، ثـم انحنى راكعـاً، وهمّ بالسـجود! فقال الوليد: صهٍ يا أحمق! سـتدنس الغوطة إن لمست أرضها الناضرة بجبهتك الشوهاء! حذار من السجود!

فتراجع أشعب في استكانة وقال: أمرك يا سيدي العظيم!

فصاح بعض الندماء: لا تتعدّ طورك أيها الشيخ! لم تردْك هنا عابداً ساجداً ولكن نريدك قصّاصاً مضحكاً! فهات نادرة أخرى مما دبره احتيالك اللئيـم.. ثم توجه بنظره إلى الوليد وقال في أدبٍ: إن أذن أمير المؤمنين، فهزّ الوليد رأسه وقال: أذنت فهات يا شيخ، وأوْجز الحديث.

فعاد أشعب إلى كرسيه الخشـبي، وتربع عليه في حركة عابثة، وهمّ بالكلام فمسـح شـفتيه، ووضع يده على جبهته كمن يتذكر: ثم قال في تؤدة هادئة:

لقد أودعت يـا أمير المؤمنين عندي امـرأة من جاراتي ديناراً، فلما أصبح الصباح نظرت إليه فوجدته قد ولد درهماً، فذهبتُ إلى صاحبته وأعطيتها الدينـار والدرهم، وقلت في صـدقٍ: إن دينارك قد ولـد لديَّ! وطفله مـن حقك فخذي الدرهم، ففرحت فرحاً شـديداً، وقالت: دعه عندك حتى يلد من جديد، وفي اليوم الثاني وجـدتُ الدينار قد ولد الدرهم فبعثته إليها فقبلته في سـرور، وفي اليوم الثالث مات الدينار في الوضـع، فأعلمـت صاحبتَه فصرختْ وناحتْ وشـكتْ أمري للنـاس فوقفوا معهـا! حتى تعجبـتُ وقلت: أتصدق هذه المرأة أن الدينار يلد ولا تصدق أنه يموت! ثم نظر في مسكنة منكسرة وقال:

هذا بعض ما أكابد يا أمير المؤمنين!

فابتسم الوليد ضاحكاً وقال: أنت بحقٍ معذور يا أشعب مع هؤلاء المحتالين فصفق الشيخ في طربٍ وقال في لهجة مضحكة ـ وقد غَضّنَ ملامح وجهه فآثار العبث والاستهزاء:

الحمد لله، لقد نصرني أمير المؤمنين.



ودنا موعد الغداء ففاحت رائحة الشـواء حتى اختلطت بأنفاس الزهر والياسمين، فنهض أشعب من مكانه مدهوشاً، وقال في جدٍ متكلف: أين حبيبي العزيز؟!

فسـأل الوليد في عبثٍ: وهل عرفت الحب أيها الشـيخ العجوز!

فأسـرع يقول: علم الله مـا لمحت مائدة علـى بُعْدٍ، إلّا عشقت ما عليها دون أن أراه!

فزجره الخليفة قائـلاً في جدٍ: أجب عن السـؤال، وإلّا قطعت رقبتـك العجفاء! هل عرفت الحب؟ فجعل أشـعب يدخل في نفسـه منكمشـاً وقال متباكياً في لهجة مضحكة: عرفته يا أميـر المؤمنين فقـد أحببت جاريـة بالمدينة ذات جمال ودلال!

فتهكم بعـض الندماء يقـول: أأحببتَها بوجهـك هذا يا أشعب؟ فقال الوليد: ولِمَ؟ لكل ساقطة لاقطة، ثم توجّه إلى الشيخ يقول: وماذا أهديت إلى حبيبتك أيها العاشق العميد!؟

فقال أشـعب ـ وقد نظر نظرة اتسـعت بها حدقتاه: كان في أصبعي خاتم فطلبته، وقالت إنها ستذكرني به، فقلت لها

في صراحة واضحـــة: إذا كان الخاتم للذكـــرى فاذكري أنك سألتنيه، ومنعتك إياه!

فقال الوليد في سخرية: الحبّ لا يعرف البخل أيها الشره الضنين، فأنت إذن لم تحب، وســأحرمك من الغذاء! جزاء كذبتك البلقاء!

فصرخ أشعب فزعاً: تحرمني من الغذاء! سأقتل نفسي يا أمير المؤمنين!

فأخـــذ القوم يتضاحكـــون متغامزيـــن، وقـــال قائلهم في سخرية: افعل بنفسك ما تشاء، فدمك هيّن على أمير المؤمنين!

فتراجع أشـــعب وقد تأمل الوجوه في تطلع، وقال لمن يحدثه: لقد نسيت أيها الذكي ـ كيف أقتل نفسي، إني سأسير معكم إلى الخـــوان وآكل وأخالف أمر الخليفة، فيحكم عليّ بالقتل وألقى الله شبعان ريان! ونعم الممات!

فتبســـم القوم.. ولكنّ الوليد يضحك قائـــلاً: لن تذهب إلى الطعام وبيننا وبينه هذا النهر المتدفق، لأننا سنركب إليه الزوارق ولا يحملك النوتي، وترانا على الشـــاطئ من بعيد نأكل من الموائد الحافلة! وأنت متحسر حزين!!

فأظهر الشـــيخ مزيداً من الجد، وقال: لقـــد ذكّرني أمير المؤمنين بحادثة شبيهة لما يقول كابدت حسراتها منذ حين!

فعبس الخليفة عبسة غاضبة، وقال معففّاً: وهل خطر ذلك على ذهن قبلي أيها المجنون؟

فتضمضع أشعب ونظر في توسلٍ وقال: إنها حادثة شبيهة فقط، وليست بعينها، فقد رأيت ذات ليلة في طريقي عرساً من الأعراس، فدخلت إليه في لهفة، وعرفني صاحب العرس، فاحتال عليّ، وأحضر سلماً، وقال في لهجة مؤدبة: إلى الأعلى أيها السيد، فارتقيت إلى السطح، وظننت المدعوين سيصعدون، ولكنه حمل السلم بعد صعودي وحدي! وأحضر الطعام فجعل القوم يأكلون، وأنا أصرخ عليهم فوق السطح ولا من سميع!

ثم ابتسم الشيخ في دهاءٍ وقال: محال يا أمير المؤمنين، فذلك صعلوك حقير، أما أنت فأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين! لقد رأيت أجدادك جميعاً يا سيدي الكبير، وإني لأستشفع إليك الآن بمقامهم الخطير.

فتراجع الخليفة وقد أخذته أريحيته لما سمع من حديث ذويه فنظر إلى جلسائه يقول: لقد استشفع الشيخ بآبائي فماذا تقولون؟

قال نديم بتظرف: هبه كلب أهل الكهف يا أمير المؤمنين، يتبعهم إلى الجنة ولا يحجب عنه نعيم!

فصاح أشعب: نِعْمَ الكلب أشـعب إذا كان صاحبه أمير المؤمنين!

ونظر الجميع فرأوا الزوارق تدنو إلى شـاطئهم النضير! فخفوا مسرورين ومعهم مضحكهم الأنيس أشعب، وقد حلم بمائدة حافلة وترقب في عجلٍ تحقيق حلمه اللذيد.

❂ ❂ ❂



مطربتان فاتنتان

دخل مسلمة بن عبد الملك المسجد الأموي ملتفاً بعباءته السوداء قبيل الفجر وجلس في ناحية منعزلة خلف المنبر يسبح الله في همسٍ دون أن يشعر به أحد، وحمل إليه الصمت المطبق في هدوء السحر حوار شيخ وقور يجلس في المحراب مع تلميذ خاص به، فأرهف أذنيه يستمع ما يدور بين الرجلين، لأن اسم الخليفة يزيد بن عبد الملك تردّد في الحوار مرات، وكان مسلمة يعلم عن شيخ المسجد الأموي صدقاً في النظر، وسلامة في الرأي، وإحاطة بصيرة بجميع ما يدور في دمشق من أنباء، لأن أتباعه المخلصين من رواد المسجد يطلعونه على ما يقع بالمدينة تحت أعينهم كل يوم، فيبدي فيه رأي الشريعة مؤيداً بالدليل ومدعماً بالبرهان، وقد انقادت له الجماهير في دمشق انقياداً قلبياً جعلهم يرون فيه إماماً هادياً لا ينطق عن الهوى، بل يقذف بالحق على الباطل فيدمغه!! وقد تعجب مسلمة كيف يتحدث الشيخ عن

أمير المؤمنين قبيل الفجر في محرابه، والوقت وقت صلاة وتسبيح، إلا أنه جمع أنفاسه، وأخذ يستمع في حذر، فطرقت سمعه هذه الكلمات يقولها الشيخ في ضجرٍ وامتعاضٍ، لقد خفتُ أن يأخذ الله دمشق المسكينة بذنوب يزيد!! لقد خالف سُنة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فاعتزل المسجد، فما يلمّ به حتى يوم الجمعة! وقد تطلع إليه الناس، وانتظروا قدومه، فلم يجدوا غير الإهمال والاستخفاف، وليته احتجب عن المسجد وتفرغ للقاء أصحاب المظالم في قصره، كما كان يفعل من سبقوه، بل أوصد الباب في وجوه الطارقين، ورجع الوافدون من شتى الأمصار حائرين خائبين، وكانوا يحملون عن أحوال بلادهم وولاتهم ما لا بد أن يبلغ سمع أمير المؤمنين، وكم تحملوا الليالي ذوات العدد في سفرٍ لاغبٍ يعانون لهيب الظهيرة ويرد الليل آملين أن يبسطوا ظلاماتهم إلى خليفة رسول الله!! وولي أمير المؤمنين، ولكنهم ـ وأسفاه ـ يرجعون بصفقة المغبون نادمين!!

فقال التلميذ في ألمٍ: لقد علمتُ يا سيدي الجليل أن يزيد قد اشترى منذ شهور جارية مغنية سماها (حبابة) وهي على ما يقال بارعة الغناء ساحرة الجمال، وقد ملكت عليه مشاعره، فعاقته عن شهود الجمعة بالمسجد، بل شغلته عن النظر في المظالم، وتأمل أمور المسلمين!

فردّ الشيخ في أسفٍ حزينٍ: لقد ترامى إليّ هذا النبأ، ولم أشأ أن أصدقه حتى حدثني به حاجب أمير المؤمنين ليلة أمس، وقد ضاعف أسفي أن يزيد يسرف في الشراب، ويتمادى في العبث تمادياً يوشك أن يضيع به سطوة العرب، ويرتجف له كيان المسلمين، ولئن لم يرحم الله أمته بخليفة صالح كعمر بن عبد العزيز، فيالعظم النكال، وبالسوء المصير.

عضّ مسلمة بن عبد الملك شفتيه متأوهاً، فقد أحزنه أن يشيع أمر أخيه، فيتحدث به كل إنسان، كما أمضّ نفسه أن يكون بين رجال القصر من يذيعون الأسرار، فتنتشر بين العامة دون خفاء، ورأى من الحزم أن يخفي نفسه فلا يشعر أحد بوجوده كيلا يقع مع الشيخ في حرج إذا تحدث الناس بأنه كان جالساً على خطوات منه خلف المنبر!! فأخرج منديله، وألقاه على وجهه، ثم التف في عباءته، وقام يصلّي الفجر خلف الإمام دون أن يفطن إليه حتى جاره الذي صافحه بعد الصلاة، ثم ذهب إلى بيته متنكراً، وفي نفسه شجون! وبين جنبيه هواجس مشتجرات!!

ولم تكد تشرق الشمس على المدينة حتى اتجه إلى قصر الخلافة، وطلب مقابلة أخيه، فقال الحاجب في تلطف:

إن أمير المؤمنين فـي خلوته الهادئة، وقـد رفض أن يقابل أحداً اليوم، ونبَّه على ذلك!! فماذا أصنع!!؟

فأطـرق مسـلمة ملياً، ثم أحضـر ورقة صغيـرة، وخطَّ بها رجاءه الخاص في سـرعة المقابلة لأمـر ذي بال، وقام الحاجب بإنفاذها دون إبطاء!

كان الخليفـة يثق في أخيـه تمام الوثـوق، فقد علم من بسـالته في الفتـوح وبلائه في الجهـاد ما قربه من نفسـه، وأدناه إلى قلبـه، كما أنه لا يخاف منـه منازعته في الحكم، ومنافسـته في السلطان، لأن أمّ مسـلمة غير عربية، وقد شاء أمير المؤمنين عبد الملك ألا يلي الأمر من أولاده غير العربي الصريح!! وأخذ الخليفة يتساءل بينه وبين نفسه عما دفع أخاه إلى اللقاء العاجل، دون تريث، أجاءته الأنباء عن ثورة شبت في بعض الأصقاع، ورأى من الحكمة أن يسـارع بإخمادها، قبل التمـادي والاسـتفحال! إن الخواطر لتتـرادف عليه في خلوتـه اللذيذة مع صاحبته (حبابة) وإنها لترى في قسـمات وجهه، واختلاف ملامحه ما يدفعها إلى سؤال أمير المؤمنين عن فحوى الرسـالة! فتعلم أن مسـلمة أخاه يريـد المقابلة العاجلة، لأمرٍ جلل! فتبسـمت إلى أمير المؤمنين في (دلال) وتقول متضاحكة: لا بأس يا مولاي فيومنا طويل مديد!



ويتقدم الخليفة إلى ردهة الاستقبال، فيسلم على أخيه في أدبٍ، ويجلس إلى جواره منتظراً ما عسى أن يبدأ به الحديث...

فقال مسلمة في صراحةٍ: لماذا يتخلف أمير المؤمنين من أداء الجمعة في المسجد الأموي مغيّراً ما سار عليه آباؤه وأجداداه من الخلفاء!

فدهش يزيد لسؤال لم يكن يتوقعه! ولكنه أظهر الثبات، ولجأ إلى الحيلة فقال: إن العامة من الرعية يرهقوننا بالتزاحم والتهافت، حتى نملّ ونسأم، وأنا أتحاشى لقاءهم فأصلّي في القصر بعيداً عن الغوغاء!!

فردّ مسلم: وأي جلال يتم لأمير المؤمنين إذا أصبح فرداً عادياً، لا يتطلع إليه أمل ولا يزدحم في طريقه أفواج!؟

فسكت يزيد كالحائر: ووعد بصلاة الجمعة المقبلة، ليجري على سنن الآباء، وقد ظن أن الحديث سيذهب في غير هذا الطريق! ولكن مسلمة فاجأه بقوله:

لقد أوصد أمير المؤمنين أبواب قصره أمام الناس، فأصبح المسلمون يفدون من العراق ومصر والمدينة والهند، ثم يرجعون بآمالهم كما جاؤوا، وكأنه ليس في دمشق خليفة يقابل الرعية، ويحكم بين الناس!

فتململ يزيـد كالمتضايق، وقال في ضجـرٍ: لقد كرهتْ نفسـي مقابلة الوافديـن، وطلبت من صاحب الحراسـة أن يجمع مختلف الشـكايات، ثم يعرضها عليّ دون حاجة إلى مشاهدة الرعاع!!

فتطلع مسلمة في حزمٍ إلى أخيه ثم قال... وماذا يقول أمير المؤمنيـن في حديث الرعية، وقد أذاعوا فـي كل مكان أنه ترك أمور الدولة وتفرغ لجارية مغنية، يساقيها كؤوس الصبابة وتسمعه أعذب الأصوات، حتى ليس له مأرب في غير النسـاء والغناء!! فرد الخليفة في خجلٍ حائرٍ: هذا أمر لا يعرفه غير حراس القصر وخدمه، وألسنتهم مقيدة مكبلة! فكيف يشيع ويذيع!

فتعجل مسلمة يقول، وقد ارتفع صوته قليلاً: لقد سمعت ذلك بأذني في المسجد الأموي فجر هذا اليوم، وكنت أؤدي الصلاة متنكراً، ولـم أصدق القوم بـادئ ذي بدء، ولكنني تحريـت فعرفت أنك ـ سـامحك الله ـ تحتجب عن الوفود، وتنقطع في خلواتك عن الطراق..!

فردَّ يزيد في اضطرابٍ: كل ذلك قـد كان!! ثم تقطعت الكلمات على لسانه فتلعثم مرتبكاً، وعاوده بعض التماسك، فقال في خفوتٍ: وأنا أمام هذه الغانيـة الفاتنة حائر خائر لا أستطيع أن أفارقها لحظات!

فقال مسلمة في دهشة! ومَنْ مِن أعدائك قد قذف بها إليك ليلهيك عن أمرك فيتزعزع مكانك، وتسلفك الأفواه الشامتة بقوارصها الحداد!

فأسرع يزيد يقول في ضجر: إن سعدة زوجتي قد أهدتها إليّ وما أظن أنها من الأعداء!

فنظر مسلمة نظرة ذاهلة، وقال في تحيّر: لقد حرتُ والله في أمور النساء! زوجة أمير المؤمنين تتنازل عن مسرتها به، فتهديه جارية لعوباً، تحتل مكانها من قلبه، وتعصف بكيانه الرسمي كخليفة المسلمين! فيصبح مع جاريته مضغة الأفواه، وحديث السوقة والخواص!

فقال يزيد في إطراقٍ مؤسفٍ: ذلك ما كان، وسأدعو سعدة إليك لتعترف بما أسلفت إليّ من هبات! ثم صفق بيديه في ضيق، فبادر خادمه بالحضور، فطلب أن يدعو زوجته إلى لقائه، على أن يعلمها بوجود مسلمة، لتتأهب إلى اللقاء!

كانت سعدة بنت عبد الله تعرف مكانة مسلمة في قصر الخلافة، ومنزلته من أمير المؤمنين، فارتدت حلتها المحتشمة، وأسرعت بالحضور لتجد يزيد زوجها مطرق الرأس، ساهم الوجه، ومسلمة كالنمر الغضوب، يدور بعينيه في الحجرة،

ثم يسلم عليها في حزمٍ حين تقبل على مجلسه! ولا يترك الفرصة لأخيه بل يقول: علمت أن زوجة أمير المؤمنين قد هدمت سعادتها بيديها حين أهدت إلى يزيد (حبابة) فاحتلت مكانتها من قلبه وشغلته عن الرعية والسلطان!! فتأوهت سعدة تأويهة حارة، ولم تجب! ونظر مسلمة فوجد دمعة حائرة تلمع في عينيها السوداء، ثم تسيل على خدها ناطقة بالشجن الذائب والألم المرير، فقال مسلمة في إصرارٍ: لا أحب أن أسأل فتجيب الدموع، وإنما أريد كلاماً بكلام!!

فأخرجت سعدة منديلها الحريري المطرز، ومسحت مسيل العبرة، ثم قالت في جهشة حائرة: لقد وجدته يا عماه يلهج بذكرها صباح مساء!! ويتحدث عنها كما يتحدث عن أشهى الأماني وأعذب الأحلام! فقلت في نفسي: إن البعيد حبيب مرغوب، ولئن عاشرها معاشرة الخليط المجاور، لتزولَنّ بهجتها من عينيه، فدعوتُها من المدينة على عجلٍ، حين ارتقى ذروة الخلافة، وأهديتها إليه بهذه المناسبة، وانتظرت، فوجدت القرب لا يمحو حباً يشتعل، بل يوقد اللهيب ولا تمر الأيام على غير التمادي واللجاج!

فهزّ مسلمة رأسه ثم قال: وأين رآها يزيد حتى أخذ يلهج بذكرها كل صباح ومساء!! فتنهدت سعدة تنهيدة حارة،

وقالت ـ وقلبها ينفطـر ـ لقد حضر إلــى المدينة ليصحبني من بيت والــدي حين زففـت إليه في عهد أميـر المؤمنين سليمان بن عبدالملك، وقد أُقيم لذلك عرسٌ جافلٌ تتحدث به الأحقاب، وغنَّت حبابة إذ ذاك، ورآها أمير المومنين فجنَّ بها صبابة، وحدثني عنها بشغف واله حتى في الساعة الأولى من لقائنا في المدينة! ومـا زال على توالي الأيام يهذي بها، وكأنه يطلب مستقراً لقلقه الثائر بالحديث عنها فلما رأيت ما يعتريه من الوجد، جازفت بشرائها، وقدمتها هدية حبيبة إليه، آملة أن يروي من لقائها ظمأه حتـى ينقع فيعاف، فمرت به الأيام ـ والهفتاه ـ دون ارتواء..

ثم سـكت فجأة، فنظر يزيد لأخيه في تطلـعٍ، وقال: وهذا والله ما كان دون تزيد وادعاء!! وشـاهد مسـلمة ما يرتسم من ملامح حزينة على وجه سعدة، فطلب إليها أن تذهب فتستريح!!

خلا الأمير إلى الخليفـة.. وقال له في حزمٍ صريحٍ: أنتَ لست مِلْكاً لنفسك يا يزيد، بل أنتَ مِلْكٌ للدولةِ التي تملك، والأُسرة التي فوضت إليك رئاستها، ولئن تمادى بك الشأن على ما أرى لتزلزلن بعرشـك القوائم الثابتة وليتطلعن إلى مكانك من يرى نفسه أولى منك بالسلطان! وأنت لا تجهل ما يتهددنا من الثوائر بالكوفة وخراسان، وإنّ شائعة تشيع في

الأمصار عن احتجابك عن المسجد يوم الجمعة، وانقطاعك إلى قينة متهتكة، لكافية وحدهـا أن تخْرج حولك الصدور، وترسل السيوف من الأغماد...

قال يزيد في حسرة المرتبك اللهيف: وماذا أصنع يا أخي! وأنا لا أستطيع السلوان وقد حاولته مرات فبؤت بالخذلان!

فصاح مسـلمة كمن يتعجب لأمر مشـين!! يا سـبحان الله! ثم كتم غيظـه، وقال: كُنْ رجلاً جديـراً بالملك يا أمير المومنين، وابدأ بأمرك فاذهب إلى المسجد من الغد، وانقطع عن صاحبتك فلا تخلو إليها غير ساعة أو ساعتين في اليوم، إذا ضعفت: ثم خذ نفسـك بالحزم والتماسـك، فإذا مرّت الأيام علـى تغاضيك وتصبرك، واسـتحال التطبع إلى طبع، فتذوق برد السلوان.

قال يزيد في حيرة: سأحاول كل شيء وليتني أستطيع.



انصرف مسـلمة من القصر، وخلا يزيد إلى نفسـه فلم يتصل بأحد، ولم يسـرع إلى (حبابة) كما توقعت أن يجيء، فأدركت بفطنتها الحصيفة أن الجلسة كانت تدور حولها، وأن

استدعاء سـعدة على عجلٍ ورجوعها بعد فترة ما كان لشأن من شؤون الملك، ولكنه لأمر القصر وحده، وماذا في القصر من شـؤون غير أمرها مع يزيد!! فأغضت على غيظ مبرح، واختلج في صدرها الهواجس ما شـغل بالها شـغلاً شديداً، ولم تشأ أن تترامى على قدمي سـيدها متذلّلة، فتريق كبرياء الجمال، وتهـدر جلال الفتنة! بل أمسـكت على ما بها من الأشجان، ومضى اليوم ولم تَرَ وجه الخليفة ثم أصبح صباح الجمعة، فرأت من اصطفاف الحرس، وتهيئة الجند ما علمت به ذهاب الخليفة إلى المسجد الأموي! فاستحال شكها إلى يقين أكيـد، وثبت لديهـا أن النصيحة للعاقلـة وُجهت إليه بالإقلاع عن اللهو، والإنصراف إلى المهام، فاكتأبت نفسـها اكتئاباً أذاب قلبها المصهور، وفي لحظة من لحظات ضعفها اليائـس تركـت ثباتها المتكبـر وأخذت عودهـا، وتقدمت إلى حجـرة الخليفة وقد تهيأ للخـروج بموكب الجمعة إلى المسجد، فغنت في نغمٍ حزينٍ وترجيع شجيّ:

ألاَ لاَ تلمـه اليـوم أن يتَلبدا ... فقد غلب المحزون أن يتجلدا

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى ... فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

فاضطـرب يزيد إذ سـمع الصوت السـاحر، ونظر فرأى وجه الغانية العاتبة جذاباً يسـتميل إليـه كل ناظر! ولمح في محياها الغاضب ثورة زادت سـحره فوشـته بظلال فاتنة من

الروعة والحسن! وأخذ ترجيعها الآسـر بمجامع قلبه، فترنح كالمتخاذل وثبت فـي مكانه لا يريم، ثم صـاح في غضب: صدقت يا حبابة قبح الله لائمي فيك! يا غلام، مُرْ مسلمة أخي فليصـلِّ بالناس، ثم نهض إلى معبودتـه فأخذها بين أحضانه وتقابلت دموعهما في شغفٍ لهيف! ووصل النبأ إلى مسلمة، فتوجه كئيباً محزوناً إلى المسـجد، ورجـع بعد الصلاة حائراً قلقاً يتململ من الضيق! ولم يسـتطع البقـاء في بيته فحملته قدماه ثانية إلى قصر الخلافة فأغفل لقاء يزيد! إذ لم يجد فائدة عملية في محادثته، وطلب الإذن على سعدة، فأخذت حشمتها الزينة، وتوجهت إليه في أدبٍ مهذبٍ فقال في ابتسـامٍ: لقد ضاعت النصيحة سـدىً يا أختاه، وضلَّ صوابي في أمرِ يزيد، إذ تقول عليه الناس بما لا أطيق! وَلَاكَتْ أحاديثه الأفواه..

فقالت سـعدة في غيظٍ: لقـد توقعتُ ذلك يا سـيدي، فهيهات أن يلتفت أخوك إلى واجب أو يعتصم برشاد!

فأطرق مسلمة ثم قال: وماذا نصنع الآن؟ ليست المسألة من شأن أخي وحده ولكنها من شؤون الناس!

فنظرت سعدة كالحائرة ثم قالت: لقد فكرتُ في المأساة ليالي طويلة، حتى جافاني النوم فكنت أصل المساء بالصباح على غير رقاد، ثم اعتزمت أمراً وسأنفذه لأنظر ما يكون!

فرفع مسلمة رأسه مهتماً وقال في حزمٍ: أَبِيْنِي ما عزمت عليه لنتبادل المشورة فيسهل الإنقاذ! فردت سعدة في انفعال: لا أكتم عنك أني جد ناقمة على (حبابة) ولا بد من أزعاجها في مشاعرها لتذوق بعض ما أكابد من ويلات! وسواء رفضت يا سيد أم قبلت، فسأبعث إلى المدينة لأشتري سلامة القس سيدة الغناء هناك، ولها جمال ودلال! ثم أهديها إلى يزيد فتأخذ من قلبه بعض ما تشغله حبابة من فراغ كبير!

فابتسم مسلمة لما أدرك من كيد النساء، وقال في هدوءٍ: ولكنك تطفئين النار بنار مماثلة، كمن يداوي شارب الخمر بالخمر! وأنا أريد أن أطفئ النارب بماء بارد فيحيلها إلى رماد تذروه الريح!

فردت سعدة في أسفٍ: لن نجد السبيل إلى الماء، وقد حاولته فتعذر...

قال مسلمة: لست موافقاً على ما تقولين فابحثي عن سلاح جديد.

فصاحت الزوجة في غضبٍ مكتوم: أصارحك أني بعثت فعلاً بمن يشتري سلامة من المدينة ويأتي بها إلى قصر أمير المؤمنين، وقد أفهمت والي المدينة: أن هذه رغبة يزيد نفسه، ولا شك أنه سيبادر إلى التنفيذ!



فدق مسلمة كفاً بكف، ثم قال في تساؤل: ومن أدراك أن سلامة هذه تفوق حبابة في روعة الغناء وسحر الجمال؟.

فأجابت سعدة: لقد علمت أنها فتنت جميع الناس بالمدينة، على كثرة من بها من ذوات الصباحة والغناء ـ حتى أن الشيخ الوقور عبدالرحمٰن بن أبي عمار المشهور بالقسّ لورعه ونسكه قد ترك تسبيحه وهام في محاسنها الفاتنة، فنظم أرق الغزل، وأبدع الأبيات!! ثم سكتت لحظة واستطردت تقول: كما علمت أن سلامة أديبة شاعرة تعرف أخبار العرب، وتنظم سواحر القول، وتحفظ طرائف التاريخ وتلم بالأنساب، فإذا حدثت أمير المؤمنين وشاهد من حصافتها وعلم ما شاهد! فستشغله كثيراً عن صاحبته الجاهلة، فتعرف لوعة الغيرة وثورة الأشجان.

قال مسلمة في عجبٍ: لقد بالغت يا سعدة في أمر سلامة كما أظن، فلم أرَ من النساء من تخصصت في الشعر والأنساب والتاريخ!! ماذا بقي إذن أمامها غير الفِقه وتفسير القرآن والحديث!

فأجابت سعدة متعجلة!! نسيتُ أن أقول إنها ألمت إلماماً جدياً بالفِقه والحديث! فقهقه مسلمة ساخراً



وقال: أظنك تعلمين أن غناء الجارية وفِقه القرآن لا يجتمعان!!

فردت سعدة في تأكيد: إن عثمان بن حيان والي المدينة قد اعتزم مرة أن يطهرها من طوائف المغنين والمغنيات! فاحتال ابن عقيق حتى جمعه بسلامة، وخاض معها في شجون من الفِقه والسيرة والحديث فبهرته بفهمها الدقيق وقال: لن أخرج من المدينة عالمة فقهية!! فقالَ ابن عقيق منهزّاً رضاه عنها: «إذن فاترك الباقيات كيلا يقول الناس إن الوالي أحب سلامة القس»!! فبادر بالإذعان وترك الجميع، فأطرق مسلمة قليلاً ثم قال في غضبٍ: أجاءك ذلك كله عن المدينة يا ابنة عبد الله مع نزوح الدار!؟

فقالت سعدة: ولم لا يأتني كل شيء عن المدينة وبها أهلي، وفي ملاعبها البهجة ترعرع صباي وتنسمت أريج الحياة!!

فتأوه مسلمة تأوهاً يَدلُّ على همِّه المتماوج! وقال في أسفٍ مبرح: لقد عالجت المسألة من زاوية الغيرة وحسدها يا سعدة! ولعل الله يوفقني إلى علاجها من طريقها الصحيح فأستأصل الخطر على أمير المؤمنين!



وشـهد قصر الخلافة بعد أيام مطربتين بارعتين تجلسان في ردهته الفسيحة إحداهما عن يمين يزيد والأخرى عن يساره!! وكانت حبابة أجمل وجهاً وأبهى طلعة، وكانت سلامة أشهى حديثاً وأوسع معرفة وأخف سحراً! وكأن اجتماعهما معاً قد كمل نقصاً كبيراً كان يزيد يلتمس تمامه حتى عثر عليه!! فزاد انصرافه إلى صاحبتيه، وأنس بهما أنساً فتح أمامه مباهج الأمل ومهد دونه طرق النشوة والإمتاع، وانتظرت سعدة أن تشب نيران الغيرة بين الجاريتين المتنافستين على قلب أمير المؤمنين، فلم يصدق ظنها فيما توقعته!! فقد كانت حبابة تجد من أنس يزيد ما أنساها موازة المنافسة والتزاحم! وكانت سلامة تعرف أنها طارئة مقتحمة، فأفسحت صدرها وأغضت عما تندّ به صاحبتها من تعريض يصل حيناً ما إلى تصريح بغيض! وكأنها علمت ما يضمر يزيد لحبابة من هوى صادق فلم تشأ أن تكدر الصفو بنزاع أو خصام!! ورأت حبابة حلم صاحبتها وسعة صدرها وجمال صفحها، فأنست إليها بعد نفار، واطمأنت إلى زمالتها المحتومة!! ولا سيما وهي تعرف أن في نزاعهما ما يحرج صدر أمير المؤمنين، وذلك صعب كريه! ومرت

الليالي سـريعة وكلتاهما تأخذ من أسـباب الترف ووسائل البهجة بأشـهى نصيب وأوفـاه، حتى شـغلتا يزيد عن كل شـيء، فأصبح منهما في سـكر لا يفيق وكأن القدر أراد أن يضع حدّاً لهذا العبث المستطيل، فقد امتد به التهور امتداداً أحرج الأقارب وأقر عيون الشامتين! فوقعت الكارثة الداهية إذ جلسـت حبابة تـأكل عنقوداً مـن العنب فشـرقت بحبة كبيرة كانـت بها منيتهـا العاجلة!! ونظر الخليفـة فإذا كنزه الثمين يفلت بغتة من يديه، فطـار صوابه، وأبدى من الهلع ما جاوز كل حد! حتـى أمر بعدم دفنهـا! وظلت في قصر الخلافة مسجاة على سرير الموت ثلاثة أيام!! وصاح ندماؤه في أسـفٍ: «لقد صارت جيفة بين يديك يـا أمير المؤمنين» فأذن بدفنها والزفرات تتأجج في صـدره وعاش بعدها أياماً معدودات ثم قسا عليه الحزن، فأسـلم أنفاسه متحسراً لهيفاً وفارق الحياة.

أما سـلامة فقد قـدّر لهـا أن تبكيه بدموعها السـاخنة كما قدر عليـه أن يبكي صاحبتها الراحلـة!! والدنيا غرائب ومفاجآت!!

❁❁❁



أكولٌ نهمٌ

كان العباس بن الوليد بن عبد الملك يتوجه إلى قصر الخلافة لمقابلة شقيقه يزيد بن الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين فرأى بباب القصر رجلاً أسمر عملاقاً ذا رأس ضخم، ومنكب عريض، وإن لحمه ليتكتل على جسمه، فتتخيل حين تراه أنه قطعة هائلة من الجبل تجري فيها الروح وتدب بكيانها الحياة..

فسأل في خشية عن هذا الأسمر المخيف فقيل إنه فارس الصحراء هلال ابن أسمر فقال العباس وماذا قدم به إلى أمير المؤمنين؟ فقال صاحب الحرس لقد علم الخليفة بغرائبه المدهشة فأحبّ أن يراه وكتب إلى عامله بالمدينة فبعث به إلى دمشق ليحقق مطلب أمير المؤمنين...

فسكت العباس ولم يتكلم ثم تقدم في صمتٍ حتى أخذ مجلسه ـ دون استئذان ـ في جوار أخيه، وابتدأ يقول في تبرم

ظاهر: لقد كنت يا يزيد تعيب على سلفك الوليد بن يزيد انقطاعه عن شؤون الخلافة وانصرافه عن المظالم إلى جماعة من ذوي البطالة واللهو يشربون الخمر وينشدون الشعر، فكيف تنصرف أنت إلى ما انصرف إليه الوليد، وتبعث إلى المدينة متصيداً شذاذ الآفاق، وصعاليك البداة لتقضي معهم يومك الطويل دون نظر إلى ما يقع على كاهلك من أثقال وصعاب!

فابتسم يزيد بن الوليد في دهاءٍ وقال يستعطف أخاه: أراكَ لا تزال على دأبك في ازدرائي وتهجيني! وإني لأتحمل منك جميع ما تقول.. وقد ذهب مصرع الوليد بذكره ولكنك دائماً تعيرني به وكأني ارتكبت حدثاً هائلاً حين أعلنت الثورة عليه، وسعيت في مهلك مُستهترٍ خليعٍ.

فقال العباس في غضبٍ: لن أغتفر لك هذا مهما اغتفره الناس، فقد فتحت بثورتك الظالمة باب المروق والعصيان في بني مروان، ولست آمن من ينتفض عليك في لحظة من اللحظات، فيجمع إلى خلعك الكتائب والجيوش! وإذ ذاك تشرب من كأس أرغمت على احتسائها سواك.

فقال يزيد ملاطفاً: رفقك يا أخاه فأنا أعلم أنك بايعتني مكرهاً غير طائع، ولولا ما اضطرك إليه الجمعُ من مبايعتي

لتفرقت الكلمة وتحزّب الناس، وأنا أناشـدك الله والرحم أن تعفو عما سلف، فقد كفى ما كان...

فأطرق العباس! إطراقة العباس الحزين، ثم قال في حزم:

لقد اضطررتُ أمام الناس أن أتناسـى جريرتك الشائنة.. ولكني مضطـر إلى نصيحتك بـأن تقلع عـن ذوي البطالة واللهو، وتنظر في أعمال الخلافة ومصاعب الدولة، ليطمئن إلى عهدك العرب والمسلمون..

فقال يزيد في ابتسامٍ: إن عين الغضب نائمة يا عباس! علم الله أني أصل الليل بالنهار في اسـتطلاع الشؤون، وتصريف الأمور، حتى عرف العرب عنـي كلّ محمدة تمدح، ومضى مثلهم الشارد يقول: الناقص والأشج أعدلا بني مروان...

فتأوه العبـاس تأويهة متبرمـة وقال: خدعتـك الألفاظ يا يزيـد.. ولقـد كان من قبلك مـن الخلفـاء يمدحون فلا ينخدعون، بل إن معاوية بن أبي سـفيان كان يسـمع الثناء فيستشف من خلاله قوارص الهجاء، ثم يميل إلى الإغضاء.. وأنـت فيما أرى يغرك المديـح الزائف والثنـاء الخداع.. يا يزيد.. لست أغشك ولكن أنصحك.. وإني أخوك..

فقال يزيد في سـهوم: أتذكر لي شيئاً أغضبك مني اليوم لنضعه على بساط النقاش!!

فرفع العباس رأسه وقال: هذا الصعلوك الذي بعثت إليه، لتنصرف به عن شؤون الخلافة، فيسمعك القصص وينشدك الأشعار..! وكأنك صاحب رواية وأخبار لا مصرف دولة وأرواح...

فنظر الخليفة إلى أخيه ـ وهو يحاول أن يكتم ما أثار حديثه في نفسه من امتعاض ـ ثم قال في أدب ودود: إن الرجل الذي تعنيه فارس بطل من فرسان الصحراء، وقد نقل أمير المدينة إليَّ عنه من غرائب القوة وعجائب البسالة ما أحببت به أن أراه، وأنا لا أصاحب الخائنين والخلعاء أو أستطيب الكؤوس المترعة من الشراب أو استقدم المحصنات والمنتهكات كما كان يفعل الوليد!! فماذا تقول في خليفة يعلم عن أحد رعاياه ضروباً من الفتوة والبطولة فيستدعيه، ويعرف له حق التضحية والاستبسال، فتراجع العباس متأثراً.. ثم قال لئن كان ما تقول من أمر الرجل فإن أحب أن أستطلع أنباءه معك!! فأرى أي خارقة نادرة يأتي بها هذا المصارع العملاق..

فتهلل وجه الخليفة في بشر ثم صفق بيده، وأذن لهلال في الدخول لساعته، وَمَثُلَ الفارس بين يديه في ثباتٍ واعتداد...



فقال يزيد في تخابث.. ما اندفاعك إلى الشــر يا هلال، فقــد أثرت النفــوس وأضرمــت الأحقاد، فابتســم العملاق الضخم، فظهرت أســنانه متراصة حادة كأنها تشــي بالنهش والافتــراس، وقال في صوت أجشّ: أي شــر تعنــي يا أمير المؤمنين.

فقال يزيد مسرعاً، لقد نقل إليّ أمير المدينة أنك هجمت على العبد الرومي سحيم ووضعت رأسه بين أبهاميك فسقط على الأرض مغشياً عليه في ذهول..

فنظر هــلال نظــرة فاحصة، وقــال: أولَمْ يســرد عليك الأمير قصة ســحيم بالتفصيل، علم الله أنني كنت راغباً عن الصراع.. ولكــن الوالي قــد اضطرني إليــه، فأكرهت على المبارزة وانتقمت للعرب من هذا الجبار.. فتبسم العباس ابن الوليد، وقال لهلال: سألك أمير المومنين أن تذكر كل شيء بالتفصيل، فكيف تميل إلى الإجمال.. كيف رأيت ســحيماً ونازلته بمشهد من الناس!!

فقال هلال في اعتداد: لقد قدمت المدينة ذات مساء فلم أزل أضع عن إبلي وعليها أحمال التجــار حتى أخذ بيدي، وقيل لي: أجــب الأمير، فقلت لهم ويلكــم إبلي وأحمالي، فقيل لا بأس على إبلــك وأحمالك، وانطُلِقَ بي حتى ذهبت

فسلمت، ثم قلت للوالي: جعلت فداءك إبلي وأمانتي، فقال نحن ضامنون لها حتى نؤديها إليك، قلت: فما حاجة الأمير إلـيَّ، فقال: أرأيت هذا الرجل الأصفر، وأشـار إلى إنسان جواره، فما رأيت يـا أمير المؤمنين قط أشـد خلقاً منه ولا أغلظ عنقاً، وما أردي أطوله أكثر أم عرضه.. ثم تابع الوالي يقول إن هذا العبد ما ترك بالمدينة عربياً يصارع إلا صرعه، وقد بلغني عنك قوة، فأردت أن يجـري الله صرع هذا العبد على يديـك فتدرك ما عنده من أوتار العـرب، فقلت للأمير إني تعبٌ نصيبٌ جائع، فإن رأى الأمير أن يدعني اليوم حتى أضع عن إبلي وأؤدي أمانتي وأريح يومي هذا ثم أجيئه مع الغد فليفعل، فقال لأحد أعوانه: انطلقوا معه فأعينوه، ففعلوا جميع ما أمرهم به وبتّ ليلتي تلك بأحسن حال شبعاً وراحة وصلاح أمـر، فلما كان مـن الغد قدمت وشـددت بعبائتي وسـطي، وجاء العد فجعل يدور حولي ويريد قتلي وأنا منه وجـل ولا أدري كيف أصنع بـه ثم دنا قريباً فشـج جبهتي بظفره شـجة نالت مني أصعب منال فغاظني ذلك، فجعلت أنظر مـا أقبض منـه، فما وجدت شـيئاً أصغر من رأسـه، فوضعت إبهاميّ في صدغيه، وأصابعي الأخرى في أذنيه ثم غمزته غمزة صاح منهـا قتَلتَني قتلتني فصفق الحاضرون من شهود الأعراب ووجهاء المدينة، وقال الأمير مبتسماً: أغمس

رأس العبد في التـراب، فقلت له ذلك عليّ فغمسـت والله رأسه في الثرى، ووقع مغشياً عليه حتى ضحك الوالي وأمر لي بجائزة وكسوة وانصرفت!!

فضحـك يزيـد مرتاحـاً وقـال فـي احتيـال: كأنـك يا هلال تسـلك مسـالك صعاليك العرب من قطاع الطريق ومغتالي الأرواح! فتعيدُ سـيرة تأبط شـراً وعروة ابن الورد ومالك بن الريب!

فتجهم هلال تجهماً صار به وجهه قطعة من الليل وقال في غضبٍ:

لسـت صعلوكاً ولا قاطع طريق يا أميـر المؤمنين وإنما أنا أعرابي أسير وراء إبلي، وأذهب بما عليها من السلع إلى أصحابها فأعيش بأجر النصب والتعب والكلال...

فقال العباس إن مثالك في قوته وبأسـه لا بد أن يتجبر على الناس، فيخيف الآمن ويقطع السبيل في صحراء تيهاء، ذات منادح وشعاب!!

فنظر هلال نظـرة الواثق المعتز وقال: شـهد الله لم أبدأ أحداً بشرٍ ما دون أن أجد منه العدوان.. وكم مرّ بي من أناس فاستخفوا بمرقدي وانهالوا عليّ بالسياط.. وإذ ذاك أعمد إلى الانتقام.

فقال يزيد في عجب: يضربك الناس بالسياط!! ومن يقدر على ذلك!

فأجاب هلال في ثبات: ولعينيه بريق آخذ كاد يفزع له يزيد في مجلسه! لولا ما حوله من حراس يمتشقون السيوف ويُصوّبون الرماح.

كنتُ يوماً بالصحراء وقت الظهيرة وقد احتدمت الهاجرة احتداماً يشوي الوجوه ويكوي العظام فعمدتُ إلى عصاي وطرحتُ عليها كسائي واحتسيتُ بالظلّ، فمر بي رجلان أحدهما من بني نهشل والآخر من بني نعيْم وهما أشد بني تميم بأساً وعزاماً ومعهما أنواط من تمر هجر، فحين وقع نظرهما عليه ناديا: يا راعيَ الإبل أعندك شراب تسقينا قلت وأنا نائم لا أتحرك، عليكما الناقة البيضاء فأنيخاها فإن لبنها لكثير فاشربا ما بدا لكما، فقال أحدهما: ويحك أيها العبد انهض فأتِ اللبن فقلت اذهبا لتشربا، فقال أحدهما: إنك يا ابن اللخناء لغليظ الكلام قم فاسقنا ثم دنا مني وجاء الآخر فقال مثل قوله ودنا فلا والله ما اكترثت، وتقدم أحدهما فأهوى عليّ ضرباً بالسوط فتناولت يده وأنا نائم ورميتها تحت يدي، وضغطتها ضغطة صاح منها صارخاً ونادى صاحبه أدركْني فقد قتلني!! فدنا يصفع ما يصفع فأخذت

يده وفعلت بها ما فعلت بأختها ثم أخذتُ برقبتيهما فجعلت أصكهمـا صكاً لا يسـتطيعان أن يمتنعا منه فقـال أحدهما: أنت هلال ولا يفعل ذلك سواه! قلت أنا هلال فطفقا يبكيان فرحمتهما وتركت لهما العنان...

فضحك يزيد بن عبد الملك ثم نظر إلى أخيه العباس في تطلع وقال يخاطب هلالاً: والله لجدير بك أن تسـمّى أسـد الصحراء! ولكن ماذا تصنع بهـا إذا طال عليك النهار، ولج بك الصمت فلم تَرَ من تأخذ معه بأطراف الحديث!!

فقال هلال في أدب إن الشـعر رفيقـي المؤنس يا أمير المؤمنين فأنا أحفـظ القصائد الطويلة وأتلهى بإنشـادها إذا انفردت دون الناس.

فقال العباس في عجبٍ: يا سبحان الله! أيمكن أن يحفظ هذا الأصم الأصلد رقائق الأشعار وطرائف الأراجيز.

فنظر إليه هلال نظرة ناقمة كاد العباس يتحسس منها ريح الخوف لولا أنه في مجلس أمير المؤمنين ثم قال في اعتداد احفظ الشعر: أيها الأمير وأنظمه فيذيع بين الناس!!

فقال العبـاس في دهشـةٍ: وشـاعر أيضاً.. هذا شـيء عجيـب!! ألم يقـل أميـر المؤمنين أنك تسـلك مسـلك عروة بن الورد وتأبط شراً ومالك الريب! وكلهم شعراء.

فردّ هلال في حزم: أسلك مسلكهم في الفتوة والبسالة ونظم القصائد ورواية الأشعار ولا أسلك مسلكهم في السوط والاغتيال ونهب الطريق...

فضحك يزيد! وقال هو ما تقول يا هلال فأسمعنا بعض ما نظمت من المديح..

فأطرق هلال برأسه وقال في أدب: أصدقك القول يا أمير المؤمنين إذا أعلنت أني لم أنظم بياً واحداً في المديح فلست علم الله من الذين يتخذون الشعر مطية كسب وآلة استجداء.. ولخير لي أن أكون أبكم أعجم من أن أجعل لساني منكسراً ذليلاً يستجدي للمال وينكسر للعطاء..

فرفع العباس رأسه في بشر وصاح: حيّاك الله من شجاع ذي همة واعتلاء.. علم الله ما تأثرت بشجاعتك كما تأثرت بنفسيتك!! ولأنت خير من يستدعيه أمير المؤمنين من أقاصي الأرض فيجزل إليه الحياء.. ويفسح له المكان.

فضحك يزيد ثم قال يخاطب العباس: كأنك لم تعد تزعم أنني أستدعي شذاذ الآفاق وأنهج نهج المتبطلين.

فقال العباس إن كان زائروك من معدن هلال! فأهلاً بالزائرين.

فرفع أمير المؤمنين رأسه إلى هلال وقال: لقد أسديت إليّ أيها الرجل يداً بيضاء إذ كنت سبباً في ارتياح أخي

العباس وانشــراحه وأكافئك بما لا يندرج في حســابك من الأعطيات!! فأهلاً بالعباس ومرحى برضاه.

قال العباس في ابتسامٍ وديعٍ: أشهد لقد سررتُ بمجلس أمير المؤمنين.

فقال يزيد متهللاً أزد سروره بإهلال وسأعفيك من رواية الشعر، وإنشــاده كما تحد، فأتِ لنا من نوادر بسالتك، ولن يطول بك الحديث.

فشــخص هلال إلى يزيد في اعتداد ثم مــد بصره إلى العباس كمن يشكره في صمتٍ دون أن يبين... واندفع يقول:

ذهبتُ مع صديق لي إلى خيــام بكر بن وائل وقد لغبنا وعطشــنا، وإذا نحن بفتية شــباب عند بئر لهــم وقد ردت إبلهم، فاســتهولوا مَرْآي واســتفظعوا خلقــي وقامتي وقام رجلان منهم فقالا: يا عبــد الله هل لك في الصراع فقلت في حياء: أنا إلى غير ذلك أحــوج، فقالا وما هو؟ قلت إلى لبن وماء فإني لغِب ظمآن، فقال أحدهما لســت بذائق من ذلك شيئاً حتى تعطينا عهداً لتجيبنا إلى الصراع إذا شبعت ورويت فقلت في هدوء أنا ضيف غريب والضيف لا يصارع مضيفه ورب منزله، وأنتــم مكتفون من ذلك بما أقول لكم فاعمدوا إلى أشد فحلٍ في إبلكم وأهيبه صولة وإلى أشد رجل منكم

ذراعاً فإن لم أقبض علـى هامة البعير وعلـى يد صاحبكم فلا يمتنع الرجـل ولا البعير حتى أدخل يـد الرجل في فم البعير فاعلموا أنكم صرعتمونـي إذ لم أفعل، وإن فعلته فإن صراع أحدكم أيسـر من ذلك.. فعجبوا كثيراً من قولي.. ثم أشاروا إلى فحلٍ في إبلهم هائج صائل فأتيته وأخذت بهامته وضغطتها ضغطة ثقيلة جرجر الفحل منها واستخذى ورغاً ثم قلت من شاء فليعد إليّ يده فأدخلها في فم هذا الفحل.. فلا والله ما تجرأ أحد وصاح الناس تنكبوا هذا الشـيطان فما سمعنا هذا الفحل يجرجر قبل اليوم..».

فنهض العباس يقول في ابتسـام تنكّب يا أمير المؤمنين عن هذا الفحل فما خلع قلبي لحديث كحديثه.. ثم اسـتأذن ومضى فصفق يزيد فأحضر صاحـب خزانته وأمره أن يحتل هلالاً من أعطياته ما يطيق.

فتبسم خازن المال في أدبٍ وقال: مخاطباً يزيد لئن حملتُه ما يطيق، ليحملنّ جميع ما في الخزانة يا أمير المؤمنين!!

فعجل هلال يقول متضاحكاً لا بأس على الخزانة يا أمير المؤمنين فسـأحمل منها دون ما أطيق، وانصرف بسّام الثّغر ظاهر الارتياح!!

۞۞۞




خوارج أشداء

تأزمت الأمور بمروان بن محمد ذات ليلة وهو يجلس وحده في قصره الشاهق بدمشق، يفكر فيما يقاسيه من ويلات الحروب، ومن الثائرين، وقال في نفسه: كنتُ أطمع في الخلافة أملاً في هناءة العيش، ورفاهية الأيام، فما إن أخذتها بحد السيف حتى عدمت الراحة، وجافيتُ الرقاد! فما أنتقل من حومة إلا إلى حومة، وما أنتهي من دماء إلا لأصلها بجداول أخرى يختلط بها نثار الجماجم والأشلاء!! فقد شغب عليّ ـ لأول عهدي بالأمر ـ عبد الله بن معاوية بالكوفة، فتوجهتُ إليه في سفر جاهد، وقيظ لافح، وكابدتُ المصاعب حتى انتهيت من أمره، في حرجٍ وضيق، وكنت أظن الشام في قبضة يدي كما كانت من قبل في حوزة آبائي من بني مروان، يصولون بجنودهم، ويجتمون بأسنتهم، فرأيتُه ينتقض عليّ مع المنتقضين!! فحمص تثور وتأبى

البيعة، وأتجشم في إخمادها ما أتجشم من الصاب، ثم لا أكاد أضطجع بجنبي المرهق في مرقده، حتى تثور الغوطة وفلسطين... فأذهب إليهما كادحاً غير مستريح، وأرجع بعد إعياء إلى دمشق فأسمع أن ابن عمي سليمان بن هشام قد طلب الملك وخلعني بقنسرين فأذهب إليه لاهثاً مكدوداً وألاقي في نضاله شرور البلايا وصنوف الدواهي!! وها هي ذي الأنباء ترجع إليّ بثورة الخوارج، ودخولهم الكوفة! فماذا أصنع الآن؟ أأفر من الخلافة فأستريح، وهبني فعلت، فبأي وجه أقابل الناس، وما منهم إلا شامت مستهزئ، يسخر بخيبتي المحزنة وفشلي الذريع!!

هواجس حزينة مسهبة قد توافدت على خاطر مروان وأخذت عليه تفكيره فكان لها في نفسه وقع النصال المسمومة، وكلما حاول أن يتناساها لحظات قصيرة كرّت عليه بطعناتها الدامية ووخراتها الأليمة!! وشاء أن يفرّ من وحدته القاتلة، فصفق مرتبكاً بيده، وحضر خادمه ممتثلاً، فنظر إليه في امتعاضٍ ناقمٍ، وقال متعجلاً: ادعُ إليَّ عبد الحميد الكاتب، فأنا إليه محتاج إذ كان عبد الحميد موضع سرّ الخليفة وصاحب محنته! فهو يستشيره في كل أمر يعن له، فيشير بما ينبئ عن حزم ودربة، وقد لبى دعوته فحضر ليشاركه همومه وهواجسه، وكشف

له الخليفة عما يختلج في صدره من الهم، فوجد الأذن الصاغية، والقلب السميع، حتى إذا أفرغ ما في جعبته انبرى عبد الحميد يقول: لا تحزن يا مولاي فكم ليل تكاثفت ظلماته، وادلهمت طرقاته، ثم أسفر من بعده الصبح المبين، ولئن اتعبتك الوقائع وشيبتك الحروب، فقد أمدك الله بتأييده فرجعت منها مسدّد الخطوات منتصر الغزوات، تعنو لك الرقاب وتنخلع هيبةً منك قلوب المتآمرين، فقال مروان: لو تفرغتُ للخوارج لأتيت عليهم ما بين ضحوة وعشية، ولكن ثورات أبناء عمومتي من بني مروان قد أنهكت القوى، وشتت الجهود، لقد كان الوليد بن عبد الملك وسليمان أخوه وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك جميعاً أحسن حظاً مني، فلم يشغب عليهم شاغب من ذوي القرابة! فقضوا أيامهم في سعادة شاملة، وأنس ناضر!! وقد ظننت حين انتهى إليّ هذا الأمر أني سأنعم ببعض ما ينعمون فسعيتُ إلى الخلافة طمعاً في الدعة والجاه، ولم أدر أن الدهر قد قلب لبني مروان المجنّ، فهم في شقائهم يعمهون!

فردّ عبد الحميد في صراحة تعودها منه أمير المؤمنين: إن يزيد بن الوليد قد فتح باب الكوارث على الخلافة حين ثار على سلفه الوليد بن يزيد واحتز رأسه فسنّ بذلك سُنة

سيئة نبهت المطامع إلى إمارة المؤمنين، ولولا هذه الجريمة النكراء لبقي عرش مروان مهيبـاً جليلاً لا تتطلع إليه العيون وأنت بدورك يا أمير المؤمنين قد ثرت على إبراهيم بن الوليد واغتصبت عرشه منه! فتوقع أن تهب عليك الزعازع من كل فج، وهي كأس تدور!!

فعضّ مـروان على شـفتيه وقـال في أسـفٍ: تعجبني صراحتك يا عبد الحميـد! لأن وراءها رصيداً كبيراً من الثقة والإخـلاص، وإني لأسـتريح إلى استشـارتك ومطارحتك لتطلعني في أمانة على رأيك الخاص فيما آتي من حسـنات وهنـات!! وكم في الناس مـن مرائين خاتليـن، يتملقونني بمعسول الحديث وعذب الرياء! وقلوبهم تثغر بالضغينة وتئز بالحقود كقدر فوق النار!!

فأطرق عبد الحميد كمن شرد في تفيكرٍ عميقٍ! ثم رأى الخليفة يتطلع إليه منتظراً حديثه، فسـارع يقول: علم الله أني أبذل نفسـي فداء أمير المؤمنين، وأن ولائـي له يجري في عروقي مجرى الـدم، ولئن كان في حرب مـع أعدائه، فأنا معه أعانـي برح ما يعانيه!! على أن الأمـر أقرب إلى الأمل والتفـاؤل، فقد انهـزم الثائرون من بني أميـة، ولم يبق غير الخوارج، وأمرهم يسير!!

فتــدارك الخليفة يقــول معارضاً: أخطأت يــا صديقي!! فالخوارج أقوى شــكيمة، وأرهب بأســاً ممــن تعرفهم من الثائرين! وإن بنــي عمي يجمعون النــاس بالذهب والمال، فإذا جــد الجــد، وحمى الوطيــس خاف كل مأجــور على روحه، وتفرق الناس أباديــد!! أما الخوارج فأصحاب عقيدة دوّخوا علياً ومعاويــة وعبد الله بن الزبير.. وجاء دوري الآن، فثار ثائرهم أبو حمــزة الخارجي بمكــة والمدينة، واجتمع إليه الناس من كل فجٍ، والعجيب أنــه قاتل جيوش الخلافة بالحرمين الشريفين مجتمعين!! فاكتسحهم عن قوة وإيمان، وانضم إليه الناس طواعية واختيــاراً، فقد زعم المرجفون أن رجلاً يبلغ بجيشه القليل هذا النصر الحازم، لا بد أن يكون مؤيداً من السماء!! ومحاطاً بعناية الله، وما أسرع العامة إلى تصديق الشائعات واتباع الأراجيف!!

فهزّ عبد الحميد رأسه ناقماً متألماً، ثم قال: وهل انهالت علينا الشــرور إلا من العامــة!! إنهم في كل مــكان وزمان يتبعون كل ناعقٍ، فما إن يتقدمهم فارس شــجاع، يحمل راية ثائرة، حتى يســرعوا إليه مختارين، وكل يزعم لنفســه شأناً في الدولة المرتقبة، فينبه اســمه بعد خمول!! وما ظنك إذا كان ثائر اليوم أبا حمزة!! وهو إلى شجاعته المغامرة خطيب ســاحر يســتلين القلوب الصخرية بوعظه، ويسبغ على نفسه

هالة من الـــورع والجلال، وقد خطب بمكـــة خطبة مجلجلة حفظها الناس كما يحفظون الأشـــعار بل كما يحفظون كتاب الله!! وجاءتني بدمشـــق مع الرواة، فأخذت نفســـي شهد الله بحفظها واستظهارها، وكأنها تنزيل من التنزيل!!

فنظر مـــروان كالمأخوذ وقال في عجبٍ: يا ســـبحان الله: عبد الحميد الكاتب ســـيد بلغاء عصره، يســـتظهر كلام أبي حمزة الخارجي كأنه تنزيل حكيم!! ناشدتك الله إلا أسمعتني بعض ما حفظت، وما أخالك مخالفي إلى ما لا أريد.

فقال عبد الحميد في أناة: سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين: بلغني أن أبـــا حمزة الشـــاري صعد إلى المنبر ذات عشـــية يتحدث عن أصحابه فقال: «شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشـــر أعينهـــم، ثقيلة إلـــى الباطـــل أرجلهم، انضاء عبادة، واطلاح سهر، باعوا أنفســـاً تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً، وقـــد نظر الله إليهم في جـــوف الليل منحنية أصلابهم علـــى أجزاء القرآن، كلما مـــرّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها، وإذا مرّ بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه، وقد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم، ووصلـــوا كلال الليل بكلال النهار، حتى إذا رأوا ســـهام العدو وقد فرقت، ورماحهم وقد أشـــرعت،

وبرقت الكتيبة، ورعدت بصواعق الموت، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد الكتيبة، فمضى الشاب منهم قدماً، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه واختضبت محاسن وجهه بالدماء، وعفر جبينه بالثرى وانحطت عليه طير السماء وتمزقته سباع الأرض، فطوبى لهم وحسن مآب، فكم من عينٍ في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من يدٍ قد أبينت عن ساعدها، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعاً ساجداً، وكم وجه رقيق، وجبين عتيق، قد فلق بعمد الحديد!! ثم بكى وقال: آه على فراق الإخوان، ورحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحهم الجنان».

زفر أمير المؤمنين زفرة ملتهبة وقال في انفعالٍ: هذا سحر يؤثر، هذه سهام البلاغة ونصال البيان! ولعمري لخطبة واحدة من هذا الطراز، تصنع ما لا يصنع الجيش الموار!! إن هذه الفصاحة الخالبة لن يقوم لها بالمعارضة والتفنيد غيرك يا عبد الحميد!! وما أظنك حفظت هذه المقالة إلا لتمزقها إرباً إرباً حين نسوق الجموع بأدلة قواطع وبراهين حداد!! فابتسم عبد الحميد في اعتداد، وقال: لقد اتفقنا يا أمير المؤمنين!! وأراك تسير معي في الطريق، فإذا دنا جيش الخوارج من دمشق بعثنا إليهم بمن يناقشهم الرأي،

ويعارضهم بالدليل، وهم ـ بعد ـ أعراب جفاة لا يفطنون إلى حبائل الخداع ويكفي أن نتلو عليهم الآية من القرآن وأن نفسرها أمامهم بما يخذل عدوانهم وإذ ذاك ينقسمون على أنفسهم ويتقاتلون، فرد مروان بعد إطراق أنت لهم يا عبد الحميد! واستعن بحججك وبراهينك من الآن، فتلمس المشكل من الآيات، والمتشابه من الحديث، واقذف في وجوههم بكل ما يعن ويخطر ولا أزيدك توصية! فهذا ميدانك الأصيل، ثم سكت الخليفة قليلاً... واستأنف يقول: ولكن هل فكرت في رأيك هذا قبل الآن، فأعددت قوارص الجدل وقوارع النقاش من قبل، أم أن هذا الخطر الماكر قد سنح لك سريعاً معي!!

فوضع عبد الحميد يده على جبهته كمن يستذكر ماضياً بعيداً، ثم قال: لقد تتبعت أنباء الخوارج منذ شغبوا على عليّ بن أبي طالب، وعرفت أن المهلب بن أبي صفرة كان يستعين عليهم بالمكيدة الماكرة، إذ أن شجاعتهم الباسلة كانت تضيق عليه الخناق، فلجأ إلى الختل والخداع.

فشخص أمير المؤمنين بعينه إلى صاحبه، وقال: داهيةً كان المهلب بن أبي صفرة! مَنْ لنا اليوم ببطل صنديد مثله! فاذكر ما كان يصنع لنستفيد!!

فأسرع عبد الحميد يقول: كان يجدُ سهام الخوارج تتقاطر على كتائبه كالمطر من أتباع قطريّ بن الفجاءة، فبعث عيونه متنكرين، فعلموا أن صانع السهام حداد من الأزارقة له مهارته العجيبة! وعرفوا اسمه ووصفه ثم رجعوا بهما إلى المهلب، فلجأ إلى الخديعة وكتب كتاباً إليه يشكره على هديته المزعومة له من السهام ويمنحه ألف دينار! وبعث بمن أوقع الكتاب والمال في يد قطري، فتوهم أن الأمر صحيح، وجاء بالحداد فقتله، فثار الأزارقة ناقمين، وقالوا لقطري: كيف تقتله دون بينة، ورفعوا الرماح متناحرين!

فقال مروان: حيلة مثمرة دون نزاع!! ألديك غيرها من فنون المهلب ودواهيه؟

فأجاب عبد الحميد: لقد أرسل المهلب رجلين من أعوانه إلى أتباع قطري، وأمرهما أن يظهرا طاعته ويعلنا أنهما من الخوارج عن يقين، ثم طلب من أحدهما أن يسجد لقطري أمام الناس، فإذا فعل ذلك قام الثاني غاضباً وقال: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون، فكان ما اتفق عليه!

واختلف الخوارج اختلافاً عظيماً، فقائل: إنه عبد قطرياً من دون الله، فقطري من حصب جهنم، وقال آخرون:

عبد المسيح وليس من حصب جهنم! ثم تشاجر الجمعان وانتهى خلافهما إلى بلاء عظيم!

فردَّ الخليفة يقول: هنا يثمر اللجاج والنقاش! وقد أخذت برأيك، وستكون رسولي إليهم إن هاجموا دمشق قبل أن يلتحم الفريقان، وعليك أن تختار ظهيراً لك من ذوي اللسن والإفصاح فيشد أزرك فيما تريد! فمن يسد هذا المسد الخطير!؟

فسكت عبد الحميد مفكراً ثم قال: لا أعرف غير واصل بن عطاء مِدْرَهاً فيصلا يقرع البرهان بالبرهان!

فأجاب الخليفة في جدٍ: وأنا أعلم ما تنوقل عن واصل من الإقناع والسداد وأحب أن أراه لنتفق على ما يكون.

فأسرع عبد الحميد يقول واثقاً مؤكداً: سآتيك به متى جاءني! ثم نهض مستأذناً فأذن له الخليفة... على أن يتقابلوا جميعاً في مدىً قريب.



حان لقاء واصل فقد حضر إلى قصر الخليفة ملبياً دعوته، وقابله عبد الحميد فحيّاه وصافحه ثم اصطحبه إلى مجلس أمير المؤمنين، وكان في ملأ من الرعية يستمع إلى المظالم



ويناقش المتخاصمين، فأمر، فأخلى المجلس سـريعاً وتفرق الناس ودعا الخليفة صاحبيه فأخـذا مكانهما، ثم بدأ مروان مبتسماً: لقد سمعت أنك خارجي يا واصل!!

فضحك واصل في أدب وقال: وأنا سمعت ذلك يا أمير المؤمنين!

فابتسم مروان وقال: أوافقهم في بعض ما يعتقدون! فردّ واصل في حزم:

هم مسـلمون على كل حال، وأميـر المؤمنين حفظه الله يوافقهـم أيضـاً على بعـض ما يعتقـدون!! فضحك عبد الحميد ونظر إلى مروان قائلاً: هذا أول الغيث يا أمير المؤمنيـن! فقال مروان فـي خبث: بل هذا أول اللسـن والإفحام!

فابتسـم واصل وقال: سـأروي لك شـيئاً عن الخوارج يا أمير المؤمنين، فقد وقعت أسـيراً في أيدي جماعة منهم، وتحققت القتل إن جاهرتهم بما أعتقـد دون إنكار، فلجأت إلى الحذر ونجوت!

فسأل مروان: وكيف سهل باب النجاة؟

فقال واصل في دعابة: سـألني القوم مـن أنت؟ فقلت مشْـركٌ مسـتجير! فصاح قائلهم: وإن أحد من المشـركين

استجارك فأجِرْه حتى يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه فقلت وأين المأمن؟ فتركوني أسير.

فاستدرك عبد الحميد يقول: لو قال واصل أنه مسلم لا مشرك لأزعجوه بالأسئلة وقتلوه!

فابتسم واصل وقال: كتب الله لي أن أعيش.

فنظر مروان إلى واصل طويلاً، ثم سأله في اهتمام: وكيف علمت أنهم يتركون المشرك ويقتلون المسلم!!

فأجاب واصل في انتباه: علمت أكثر من ذلك يا أمير المؤمنين، فقد قابلوا مسلماً وذمياً، فقتلوا المسلم واستوصوا بالذمي خيراً، قابلهم عبد الله بن خباب ابن الأرت، وفي عنقه مصحف، ومعه امرأته وهي حامل، فقالوا له: ما تقول في أبي بكر وعمر فأثنى خيراً، فقالوا وما تقول في عليّ وعثمان، فأثنى خيراً، فما تقول في التحكيم، فقال في إخلاص: إن علياً أعلم بكتاب الله منكم، وأشد توفياً لدينه، وأنفذ بصيرة، فصاحوا في غضب: أنت لست تتبع الهدى ثم قربوه إلى النهر وذبحوه أمام امرأته، أما الذمي فقد وجدوا معه نمراً، فأخذوه بثمنه! فقال في عجبٍ: تقتلون ابن خباب! ولا تأخذون النمر دون أجر!!

فنظر مروان إلى واصل، وسأله في لباقة: وماذا تقول في تعليل ذلك؟

فقال واصل يا أمير المؤمنين، الخوارج قوم يعتقدون أنهم على حق، ولكن حظهم من العلم قليل، وقد اختلفوا على عليّ دون موجب! إذ أشاروا عليه بالتحكيم فقبله مكرهاً، حتى إذا انكشف عن لجاج وفتنة نقموا على التحكيم وخالفوا علياً من أجله، وهم مقترحوه! ولو كان علي ممن يقبل المداجاة والمداهنة لاسترضاهم بقول يسير لا يعتقده فأمن الخلاف!!

فالتفت مروان إلى عبد الحميد وقال له: تعجبني صراحة واصل، ومثله من يعتمد عليه في ثقة ويقين!

فأطرق واصل لحظات ثم قال في رفق وتهذيب: يا أمير المؤمنين، لقد سلك الخلفاء من لدن علي مع الخوارج سبيل الدماء والحروب، وما أرى من وفق معهم في أمره، كعمر بن عبدالعزيز إذ منع الحرب، فلم يسلّ سيفاً على معارض، ودعا برئيسهم شوذبا اليشكري إلى المناظرة والحجاج، فأرسل إليه اثنين من أتباعه، ودار النقاش بينهما وبين أمير المؤمنين فاقتنع أحدهما برأي عمر وانضم إليه، ورجع الآخر فأبلغ شوذبا أن الكلام قد انقطع به فما يجد الدليل... وهكذا عصم عمر رضي الله عنه دماء أصحابه أن تراق.

فانتهز الخليفة مجرى الحديث وقال في انتباهٍ: وسأوفدك مع عبد الحميد إليهم إذا طرقوا أبواب دمشق في موكب أبي حمزة الخارجي، ولي في حجتكما البالغة، وجدلكما الصائب، ما يشفي صدور قوم مؤمنين!

فتهلل وجه واصل وقال في ابتسامٍ: سيصنع الله كل خير لأمير المؤمنين، فتابع الخليفة يقول: على أني لن أدخر وسعاً في إعداد القوة، وتعبئة الجيوش، فإذا لم تصلا مع القوم إلى رأي، فالحرب قائمة بيننا على قدمٍ وساق! حتى نحمي العرين، فلم يتريث واصل وقال: إن الحرب ـ يا أمير المؤمنين ـ لن تبلغ القوم مبلغ الجدال، وقد عبأ الحجاج جيوشه فما استأصل لهم شأفة، وبذلك زياد بن أبي سفيان مكيدته وحربه فما سحق لهم هيبة، بل أن شبيباً الخارجي دخل الكوفة عرين الحجاج، وطاف بها، وقتل كثيراً ممن يعتصمون بمساجدها، وبعث الإرهاب في النفوس دون إحجام فرد عبد الحميد يقول ـ وقد توجه بالحديث إلى واصل ـ أما إن ذكرت شبيباً فاعلم أنه أسد الخوارج! لقد هزم جنود الحجاج بسبعين رجلاً من أبطالها.

وحين دخل بقومه الحصن أوقد الحجاج عليهم النار المشتعلة فكادت أن تأتي عليهم، على قلتهم القليلة! فامتشق

شبيب السـيف وتقدم أصحابه ثم هجم على اللظى فخاضه كالماء غير هياب!! وانتبه الحجاج فإذا زبانية جهنم يخرجون من النار ويهجمون بغتة فينتصرون!! ويميناً لولا أن شبيباً قد غرق بدجلة، لأمْرٍ لا حيلة له فيه ما تراجع عن الحجاج!

فأشـار واصل إشـارة الموافق وقال في تعقل رزين: إن شـجاعة شـبيب مقبولة معقولة، فهو رجل علـى كل حال! ولكن ما رأيك في شـجاعة غزالة وقد أقسمت لتلجنّ على الحجـاج غابـه، فتصلّين في مسـاجد الكوفة صـلاة كاملة بمطولات القرآن.. ثم اقتحمت الحصار وبرّت باليمين!!

والحجاج خائف طريد يستمع إلى قول مُعيِّريه.

هلّا برزتَ إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

فردّ عليه الكاتب يقـول: هو ما ذكرت يا أخي، ثم توجه بنظره إلى أمير المؤمنين وقال في أدب: لا شـيء أجدى من الإقناع والجدل يا مولاي عساهم يختلفون!!

فهزَّ الخليفة رأسه موافقاً، وأثنى على واصل ثناء مستطاباً ثم خلع عليه، واستمهله إلى وقت قريب، حين تأزف الآزفة فيكون مع صاحبه سفيريْ أمير المؤمنين.

وخرج الرجل كما جاء مبجلاً مشكوراً، وهمّ عبد الحميد بالذهاب معه، فأشـار عليه مروان أن يتريث، فجلس مفكراً

يستشـــف ما هجس بصدر مروان بعد لقاء واصل، وانتظر أن يصل معه ما انقطع من الحديث في أمر الخوارج، وأعد لكل ســـؤال جوابه الســـديد ولكن الخليفة يقول: لقد انتهينا من أمر أبي حمزة الخارجـــي إلى حل موفق، فماذا تقول في أمر نصر بن سيّار!!

ففوجئ عبد الحميد بســـؤال لم توقعه! وسأل في دهشة: ما خطب نصر ابن سيار يا أمير المؤمنين؟!

فقال الخليفة متضايقاً: لقد كتب إليّ من خراسان يخبرني بظهور أبي مسلم الخراساني وقيامه بالدعوة لبني هاشم! وقد التف حوله العدد الكثير.

فعـــضّ عبد الحميد على شـــفتيه، وقد أذهلتـــه المفاجأة الباغتة، فجعل عرقه يتساقط ثم قال في انقباض عابس: أمهل نصراً يا أمير المؤمنين، واكتبْ لـــه أن يقاوم وحده بمن معه من الجيش دون انتظار إلى مددٍ لاحقٍ من الشـــام!! أما نحن فلن نحارب في جبهتين مختلفتيـــن، فإذا فرغنا من الخوارج فَدُونَنَا خُراسَان!!

فقال مروان في ضيقٍ متـــأزم: إنّ عذابي لطويل، ونهض قائماً... فخرج وراءهُ عبد الحميد...

٭٭٭

محتويات الكتاب

❂ ❂ ❂